الدكتور محمد عبده يماني



علموا أولادكم

محبة رسول الله ﷺ

شركة دار القبلة

مؤسسة علوم القرآن

الدكتور محمد عبده يماني

المرء مع من أحب
اللهم أسكنه فسيح جناتك
مع حبيبك سيدنا محمد
صلى الله عليه و سلم

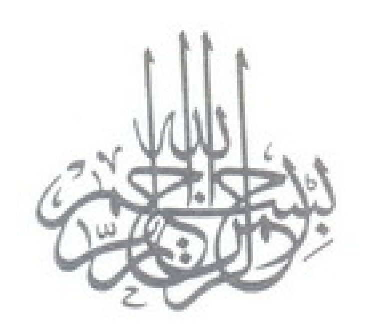
عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ

مَحَبَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

دار القبلة للثقافة الإسلامية
جدة

مؤسسة علوم القرآن
بيروت



الإهـــداء

* السّلام عليك أيها النبيُّ ورحمة الله وبركاته :
* نشهد أنك قد بلّغتَ الرسالة . . . وأدّيتَ الأمانة . . . ونصحتَ الأمة . . . وجاهدتَ في سبيل الله حتى أتاك اليقين .

محمد عبده يماني

علّموا أولادكم أن النبيّ محمداً ﷺ صفوة المصطفين وأكرم النبيين وخاتم المرسلين .

علّموهم أنه ﷺ كان قبل البعثة الصادق الأمين ، وكان بعدها الرحمة المهداة للعالمين .

علّموهم أنـه ﷺ دعـوة إبراهيم ، وبشارات موسى وعيسى ، وإمام النبيين . .

علّموهم أنّـه ﷺ خير من بلغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين . . .

علّموهم أنّـه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأنّه النبي الذي أخذ الله له العهد على أنبيائه أجمعين . . .

علّموهم أنّه ﷺ كان بشراً يُوحى إليه ، وأنه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . . .

علّموهم أنّ الله أقسم بحياته ﷺ دون أحد من الأنبياء ، فقال له : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وأن الله فضّله في الخطاب على جميع الأنبياء والمرسلين . . .

اغرسوا في قلوبهم محبته ﷺ ومحبة آل بيته الطاهرين الطيبين ، وذكّروهم بقوله ﷺ : « من أحبّني فقد أحب الله ، ومن أطاعني فقد أطاع الله » .

---

(١) سورة الحجر : آية ٧٢ .

قولوا لهم : إنّ المؤمن لا يصــدق ولا يذوق حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما .

* * *

وبعد فهذه كلمات على هامش سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . . سبق أن نشرتها متفرقة ثم جمعتها بين دفتي هذا الكتاب . . لتكون . . مساهمة متواضعة بين يدي هذه السيرة العطرة الكريمة . . ولعل الله أن ينفع بها فقد كان هاجسي الأساسي هو تحفيز الآباء والأمهات والأهل جميعاً على ربط ناشئة المسلمين بسيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، لتكون نبراساً يضيء أمامهم الطريق . . ومنهاجاً يسيرون عليه في دروب الحياة ويتمثلونه في جميع أعمالهم . . وأقوالهم . . ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . . لأنه ﷺ القدوة الحسنة لهذه الأمة . . كان كذلك لأصحابه رضوان الله عليهم . . وسيظل قدوة هذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . استجابة لأمر الله عز وجل . لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة .

واستجابة لأمر هذا الرسول الكريم والنبي العظيم : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ) .

ولهذا كان من واجبنا أن نعلمهم :

* محبة الله . . ومحبة رسوله ﷺ .
* محبة آل نبيه الطيبين الطاهرين .
* محبة صحابتهم الأكارم المخلصين .

فاللهم علمنا . . وأكرمنا بحبهم وحب من يحبهم . .

وأبقنا في صحبة هذا النبي الكريم . .

نسعد بشفاعته . . ونشرب من الحوض بيديه الشريفتين . .

ونلقاه وهو راض عنا . . يارب العالمين .

من العقلاء من يرى أهمية الاستفادة من المناسبات التاريخية العظيمة في شد انتباه الناشئة ، وجذب اهتمامهم إلى أمجاد الإسلام وتاريخ الأمة المسلمة ، وترسيخ القيم والمثل في نفوسهم ، عن طريق استعراض تلك الأمجاد أمام أعينهم ، وكذلك يرون أن دراسة السيرة المحمدية ، والتعرف إلى مناقبه ﷺ وصفاته وأخلاقه ومواقفه على اختلاف أنواعها ، واستقصاء تاريخ حياته الشريفة باعتباره سيد الخَلْق ، وصاحب عظمة وكمالٍ في الخُلُق ؛ يرون ذلك فرصة لتهذيب الناشئة ، والسمو بمداركهم وتقديم القدوة والمثل الأعلى لهم .

في هذه الأيام تظللنا مناسبة جليلة كريمة كانت إرهاصاً لتاريخ عظيم خطير ، تلك هي ذكرى المولد النبوي الشريف ، ومشرق المجد الإسلامي المنيف ، الذي شاد صروحه النبي ﷺ ، فها هو شهر ربيع يقبل علينا متألقاً ، معطّر الأجواء بأزكى الأريج وأحبه إلى قلوبنا ، وها هم المسلمون في جميع بقاع الأرض يستقبلونه سعداء مستبشرين ، ويحتفون به أعظم الحفاوة ، فيرتّلون القرآن الكريم ، ويستعرضون سيرته ، ويتحدثون عن جوانب العظمة في شخصية الرسول ﷺ ، وصور الجمال والكمال في خَلْقه وخُلُقه ، ويتأملون كيف أنقذ البشرية من ظلام الشرك وظلام الوثنية ، وكيف حقق لها العزة والكرامة الإنسانية ، ويذكرون كيف تهللت به الأرض والسماء فرحاً ، واحتفت مخلوقات الله بمقدمه سروراً :

كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله :

وُلِدَ الهُدَى فَالكائنَاتُ ضِيَاء وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وثَنَاءُ
وَالرُّوحُ وَالمَلأُ الملائِكُ حَوْلَهُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا بِهَا بُشَرَاءُ
والعَرْشُ يَزْهُو والحَظِيرَةُ تَزْدَهِي والمُنْتَهَى والسِّدْرَةُ العَصْمَاءُ

وإنها لمناسبة مفعمة بالنور ، مترعة بالسعادة لكي نقرأ السيرة الزكية ، ونستوعب أحداثها ، ونستعيد ما حوته من دروس وعبر ، وإن هذا لمن أقوى الأسباب التي تُشْعِرُ الأبناءَ بعظمة الرسول ﷺ ، وثراء حياته المشرقة بصدق الإيمان ، المضيئة بجلائل الأعمال وجسيم التضحيات ، وتملأ نفوسهم بحب رسول الله وتعظيمه وتوقيره ، وإن هذا بدوره لمن أقوى الأسباب التي تجعلهم يحبون شريعته ، ويعظمونها ، ويحرصون على العمل بها ، ويا ليتنا ننتهزها فرصة في كل عام فنجمع الأبناء والبنات ونتدارس معهم تاريخ هذا الرسول الكريم ، ونتعرف إلى أخلاقه الفاضلة ، وشمائله الكاملة ، وما أكرمه الله به من صفات ومزايا ، وما ميّزه به على سائر الأنبياء من منح ومنن ، وكيف جعل خُلقه القرآن ، وامتدحه فيه بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

*** يـــوم السيـــرة :**

ليت الأمهات يجلسن إلى أبنائهن وبناتهن حول السيرة العطرة وإشراقاتها الزكية ، ليت الآباء يفعلون الشيء نفسه ، بل أحسب هذا من واجب المدارس أيضاً . فليتها تحدد يوماً من أيام ربيع الأول كل عام تسميه : (يوم السيرة) ، يجتمع فيه الأساتذة بالطلاب في غير ابتداع ، ولا مبالغة ، ولا تهويل : وإنما في مجلس وقور من مجالس العلم والمعرفة ، وليس ضرورياً أن يكون ولادته ﷺ حسب الروايات ، ولكن في أيِّ يوم خلال شهر ربيع الأول ، أو حتى في العام ، يخصص

يوم يسمى يوم السيرة النبوية ، وذلك لربط أبنائنا بسيرة نبينا ﷺ ، وتعريفهم على تاريخ حياته ، منذ كان جنيناً مباركاً في بطن أمه إلى أن وضعته ، (فوقع على الأرض معتمداً بيديه شبه الساجد) وقد استنار البيت من حوله ، وغمره الأنس والجمال ، إلى أن استرضع في بادية بني سعد حيث شُق صدره ، إلى أن ذاق مرارة اليتم فلم يرَ أباً يرعاه ، ثم فقد أمه طفلاً لا يتجاوز السادسة من عمره الطري ، ثم مات جده وهو ابن ثمان ، وما كان من نشأته طاهراً مطهّراً لا يسجد لصنم ، ولا ينضم إلى مجلس لهو أو عبث ، ثم إقرار قريش بتفرّده في مكارم الأخلاق ، وتسميته بالصادق الأمين ، وما كان من خروجه في تجارة خديجة ، والمعجزات التي رآها ميسرة والقوم في الطريق ذهاباً وإياباً ، وكيفية تعامله ﷺ مع التجار في السوق ، ثم زواجه من خديجة سيدة نساء قريش ، التي اختارته وفضلته على سادات مكة جميعاً ، وإنجابه البنات في بيئة تكره البنات وتئدهن ، وكيف استقبل ﷺ البنات الأربع بالحفاوة نفسها والفرحة التي استقبل بها القاسم وعبد الله الطيب الطاهر ، وأثر هذا كله في قريش الوثنية الممعنة في الغيّ والضلال والشرك ، ثم ما كان بعد ذلك من وقوع الخلاف بين القبائل القرشية حول وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة المشرفة بعد إعادة بنائها ، وكيف وصل الأمر بهذه القبائل أن شحذت السيوف ، ولعقت الدماء ، وتأهبت لينقض بعضها على بعض فلم ينقذهم إلا حكمة الصادق الأمين ، وحسن مشورته ، وسداد رأيه .

يجب أن يعرف أبناؤنا هذا الجانب من تلك الحياة المتألقة بأنوار العظمة ، وهو الجانب الذي كان في الجاهلية وقبل بعثته ﷺ برسالة الإسلام ، تمهيداً لدراسة الجوانب الأخرى التي كانت في الإسلام ،

ولتكن البداية منذ بدأ ﷺ العزلة والتحنّث والتعبد في غار حراء ، وكيف كان حاله وحال زوجه وأولاده وأهله حين ذاك . ثم يتعرف الأبناء إلى الوقت الذي نبِّئ فيه ، وكيف نزل عليه جبريل بالوحي ليقول ﴿ اقْرَأْ ﴾ ثم يكررها ثم يقول : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[1] فيستخلص أبناؤنا من هذا أن دينهم دين العلم والمعرفة ، وأن افتتاح الرسالة بكلمة ﴿ اقْرَأْ ﴾ يعني التأكيد على اقتران العلم بالدين ، وبيان أن العلم أساس لمعرفة الله سبحانه وتعالى ، وأن هذه المعرفة بدورها هي رأس المعرفة ، وهي التي تقوّي الإيمان ، وتثبته في القلوب ، وهي التي يصنع بها المؤمنون المعجزات في مختلف المجالات .

ولا بد أن يعرف أبناؤنا أنه ﷺ كان صفوة المصطفين ، وخاتم المرسلين ، وليستمع أبناؤنا إلى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ، وما ذكره الرواة والمحدِّثون عنه ﷺ .

عن ابن عباس : أنه كان نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام ، يسبح ذلك النور ، وتسبح الملائكة بتسبيحه ، فلما خلق آدم ألقى ذلك النور في صلبه ، فقال رسول الله ﷺ : فأهبطني الله على الأرض في صلب آدم ، وجعلني في صلب نوح ، وقذف بي في صلب إبراهيم ، ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة ، حتى أخرجني من أبوين لم يلتقيا على سفاح قط .

وأن الإمام مسلم روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم .

---

(١) سورة العلق : آية ١ .

وليعرف أبناؤنا كذلك أن علماء السيرة النبوية أجمعوا على أنه ﷺ من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، الذين تميزوا بالكرم والفضل وحسن الخلق والشجاعة والإقدام ، والذين كانوا بواقع أعمالهم وصريح نسبهم من الخيار . فيثبت في نفوس أبنائنا رفيع نسبه ﷺ ، وشريف أصله ، وكريم منبته ، وأنه حق وصدق ما قاله عن نفسه « فلم أزل خياراً من خيار » .

وليحفظ أبناؤنا سلسلة ما عرف من آبائه وأجداده :

فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وأمه سيدة بني زهرة : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر حيث يجتمع النسب الشريف العريق الأصل الذي لم يجتمع لأحد قبله ولا بعده .

عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قالوا : يا رسول الله متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته ، وعِدَة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى ابن مريم » .

سبقتْ نبوَّتُه وآدمُ طينةٌ   فلهُ الفَخارُ على جميعِ الناسِ
سبحانَ مَنْ خصَّ النبيَّ محمداً   بفضائلٍ تُتلى بغيرِ قياسِ

وإذا تساءل أبناؤنا ، متى وكيف عُرف بالصدق والأمانة نقول لهم :

لقد عُرف بالصدق منذ وعى إلى أن قبضه الله تعالى إليه ، وكذلك عرف بالأمانة والعفة ، ويكفي أن تعرف أن قريشاً كلها قد أجمعت على صدقه وأمانته وعفته ، وهي التي أطلقت عليه اسم الصادق الأمين .

ولا بد أن يعرف أبناؤنا أنه الرحمة المهداة للعالمين حقاً وفعلاً ، ويكفي لذلك أن نسمعهم الآيات الكريمة التي جاءت في القرآن ، فالله تعالى يقول له : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) وهو سبحانه الذي يقول لقومه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨)

ومن أسمائه ﷺ : (نبي الرحمة) ، (رسول الرحمة) ، وهو (الرحمة المهداة) ، وقد روى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا رحمة مهداة » كما رواه الطبري بلفظ « بعثت رحمة مهداة » .

ويذكر الشيخ أبو زهرة في كتابه خاتم النبيين أن الرحمة كانت عنده ذات أثر عام ، وللخلق كافة ، ويذكر أن بعض أصحابه قالوا : يا رسول الله أكثرت من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذرياتنا . فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا أريد ، إنما أريد الرحمة بالكافة » .

ولا بد أن نشرح لأبنائنا كيف كان ﷺ يداوي النفوس المريضة بالرحمة ، ويعالج الشاردة منها بالألفة والشفقة ، ونذكر لهم القصص

التي تؤيد ذلك ، كقصة الأعرابي الذي جاء يطلب منه شيئاً فأعطاه ، ثم قال له : « أأحسنتُ إليك ؟ » ، قال الأعرابي : (ولا أجملت) . فغضب الحاضرون من المسلمين وقاموا إلى الأعرابي : فأشار إليهم ﷺ أن كُفّوا ، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ، ثم قال له : « أأحسنتُ » قال : (نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيراً) ، فقال ﷺ : « إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببت فقل ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك » قال الأعرابي : (نعم) . فلما كان الغد ، جاء ﷺ فقال : « إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي ، أكذلك ؟ » قال الأعرابي : (نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً) ، فقال النبي ﷺ : مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلّوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم . فتوجّه لها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت إليه، واستناخت وشد عليها رحالها ، واستوى عليها . وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار »[1] .

ومن ذلك أيضاً : قصة الجارية التي لقيته ﷺ باكية لأنها أضاعت ثمن دقيق لأسيادها فدفع لها ثمن الدقيق ، ولكنها استمرت تبكي خوفاً من ضرب أسيادها لها ، فذهب معها إليهم وتحدث معهم في لطف ولين حتى سامحوها وعفوا عنها .

ومن ذلك : مواقفه من الصغار ، وحدبه عليهم ، وكيف كان الواحد من السبطين يرتحل ظهره وهو ساجد ، فيطيل السجود حتى

(١) السيرة جـ ١ ص ٧٢ .

لا يزعجه ، وكيف كان ﷺ إذا سمع بكاء الطفل وهو يصلي ، يخفف من صلاته ليكون إلى جوار الطفل من يرحم بكاءه . . .

وقد جاءه رجل يقول : يا رسول الله إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه ، فيقول ﷺ : « هل بقي من والديك أحد » ؟ فيجيب الرجل : نعم ، فيقول له : « قابل الله في برّهما ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ، ومعتمر ، ومجاهد » . وفي رواية أخرى قال : « ففيهما فجاهد » .

وتنتشر رحمته ﷺ ، وتتفرع أغصانها لتصل إلى الحيوان ، فالحيوان عنده جدير بالرحمة ، وأشد احتياجاً لها إذ أنه لا يشكو ولا يتوجع ، ويروي عبد الله بن جعفر أنه ﷺ دخل بستاناً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ، فما أن رأى النبيَّ حتى حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه الرسول فمسح ذفراه فسكت ، فسأل الرسول عن صاحبه ، فلما جاء قال له : « ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها ، فإنه شكا إليّ أنك تجيعُهُ وتدئبه » .

كل هذه القصص والمواقف والأحداث لابد أن تحفظها واعية أبنائنا ، فهي تبث في نفوسهم حب الرحمة ، وتجعلهم من الراحمين الذين يرحمهم الرحمن ، كما تجعلهم يحبون نبي الرحمة ، ويقتدون به ﷺ .

ولا ريب أنّ تعرّف أبنائنا إلى بعض ما اختصه به الله سبحانه وتعالى من ميزات أخرى تجعلهم يزدادون حباً له ﷺ ، وتمسكاً بكل ما قال وفعل .

قال قتادة رضي الله عنه : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس

من خطيب ولا مستشهد ولا صاحب رسالة إلاّ ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله . أي تشريف بعد هذا وأي تعظيم ؟ ! . .

وقال القاضي عياض في الشفا : (ومما ذكر من خصائصه وبرّ الله سبحانه وتعالى به أنه خاطب الأنبياء جميعاً بأسمائهم فقال تعالى : يا آدم . . يا نوح . . يا إبراهيم . . يا موسى . . يا داود . . يا عيسى . . يا زكريا . . يا يحي . . ولم يخاطبه ﷺ إلاّ بقوله : يا أيها النبي ، يا أيها الرسول ، يا أيها المزمل ، يا أيها المدثر) .

وقال ابن الجوزي : (ما أقسم الله تبارك وتعالى بحياة أحد غيره ﷺ لأنه أكرم البرية عنده . وذلك قوله : ﴿ لعمرك ﴾ (الحجر : ٧٢) ، ومعناه : وبقائك يا محمد ، وقيل : وعيشك ، وقيل : وحياتك) .

وقال ابن عباس : ما خلق الله تبارك وتعالى وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من سيدنا محمد ﷺ . ومن تعظيم الله له ﷺ أن أخذ له ميثاق النبيين ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (آل عمران : ٨١)

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلي : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ ، وأُحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد من قبلي ، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى

الناس كافة ، وأُعطيت الشفاعة »[1] .

وذكر الرواة أنه ﷺ قال : « أعطيت جوامع الكلم ، وختمت بي النبوة والرسالة ، وأنا خاتم النبيين » .

قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب : ٤٠) .

وذكروا أنه ﷺ قال : « وجُعلت أمتي خير أمة أخرجت للناس » .

وقد يتساءل أبناؤنا عن معنى قوله ﷺ « أنا دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى » فعلى المتصدي للتحدث معهم ـ يوم السيرة ـ أن يشرح لهم المقصود بهذه المقالة ، وأن يروي لهم قصة سيدنا إبراهيم ، ويتلو عليهم الآيات : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة : ١٢٩) .

وقد روى ابن جرير عن أبي العالية قال : لما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا ﴾ ، قيل له : « قد استجيبت لك وهو كائن آخر الزمان »[2] .

وروى الإمام أحمد وابن سعد والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، ما كان بدء أمرك ؟ قال ﷺ : « أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم »[3] .

وروى ابن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أُمر

(١) متفق عليه ، شرح الكرماني على صحيح البخاري ، جـ ٤ ، ص ٩٧ .

(٢) تفسير الطبري .

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ٩٦ .

إبراهيم بإخراج هاجر حُمل على البراق ، فكان لا يمر بأرض عذبة سهل إلاّ قال : « أنزل هنا يا جبريل ؟ » فيقول جبريل : « لا » حتى أتى مكة فقال جبريل : « انزل هنا يا إبراهيم » قال : « حيث لا ضرع ولا زرع ؟ ! . . » قال : « نعم . . هنا يخرج النبي الذي من ذرية ابنك الذي تتم به الكلمة العليا »[1] .

وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله : لما خرجت هاجر بابنها إسماعيل تلقاها مُتلقٍ فقال : (يا هاجر إن ابنك أبو شعوب كثيرة ، ومن شعبه النبي الأمي ساكن الحرم)[2] .

وقد يتساءل الأبناء كيف كان رسول الله إماماً للأنبياء ؟

فقصُّوا عليهم قصة الإسراء والمعراج ، واشرحوا لهم كيف أمّ رسول الله الأنبياء في بيت المقدس ليلة الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

ولابد لأبنائنا أن يعرفوا أنه خير من آمن وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين ، وكيف كان ذلك ، اجعلوهم يستمعون لكم وأنتم تقصون عليهم قصة أعظم وأنبل كفاح ، لأعظم وأنبل نبي ورسول ، دعوهم يطلعون على ما عاناه ﷺ وهو ينشر دعوته بين قوم ران الجهل على قلوبهم ، فأعمى أفئدتهم ، واستبدت الوثنية بعقولهم فطمست على بصائرهم وبصيرتهم . قولوا لهم إنه ﷺ بدأ الدعوة إلى سبيل ربه بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، وجادل قومه بالتي هي أحسن ولم يكن فظاً ولا غليظ القلب ولا عاتياً ولا متكبراً ،

(١) طبقات ابن سعد ١/ ١٠٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ١٠٧ .

بل كان فيه اللطف واللين ، والحلم والصبر ، والتواضع والشهامة والمروءة . وقد حاول مع قومه بكل الوسائل لهدايتهم ولم يستعمل السيف إلا بعد أن عُذِّب وأتباعه ، وظُلم وأتباعه على أيدي صناديد قريش ومشركيها الذين نهبوا المال ، وعذَّبوا الأجساد ، واستباحوا الحرمات ، وقتلوا النساء والأطفال . وآخر الأمر اضطروهم للهجرة إلى الحبشة ، وترك الأهل والأوطان ، ثم كانت الهجرة إلى المدينة ! فأذن الله لهم بالقتال كما قال سبحانه : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج : ٣٩) وذلك بعد أن أمعنت قريش في ضلالها وتوغَّلت في عنادها وكفرها ، فخرج من مكة مهاجراً بدينه إلى يثرب ، التي أصبحت المدينة المنورة بوجوده في ربوعها . وهناك حطَّم معاقل الوثنية عندما غدر به اليهود الضالّون الآثمون وخانوا العهود ، فأدّبهم بالسيف وطهّر المدينة منهم ، ثم أقام فيها الدولة الإسلامية الكبرى ، وجعلها منارةً للهدى ، ومركزاً لإشعاع أنوار الدين الحق إلى كل بقعة من بقاع الأرض ، وقد ظلّ يجاهد في سبيل نشر الإسلام وازدهاره ، حتى آخر لحظة من لحظات حياته ، وقد وافاه الأجل وهو يجهز جيش أسامة المتّجه إلى بلاد الروم .

ولابد لأبنائنا أن يعرفوا أنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهذا ما قرره الله تعالى بقوله : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٦) . ولا بد لأبنائنا أيضاً أن يعرفوا معنى هذه الآيات ، فاشرحوها لهم ، وبيِّنوا لهم كيف كان حريصاً على صالح الإنسانية ، مضحياً في سبيل نصحها ونجاتها من عذاب الدنيا والآخرة . واذكروا لهم ذلك الحديث الشريف الذي يصور فيه موقفه من قومه إذ يقول : « مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن

فيها وهو يذبّهن عنها ، وأنا آخذ بحُجَزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي »* .

دعوا هذه الصورة المعبرة غاية التعبير تستقر في أذهان الناشئين والناشئات ، فإن لهم فيها وقايةً وحماية ، وهي حصنهم الحصين إذا ما اقترب أحدهم من هاوية فساد ، أو همّ بأن يقترف ما يعاقب عليه الله في الدنيا والآخرة .

اغرسوا في قلوب الأبناء والبنات محبة رسول الله ﷺ ومحبة آل بيته الطاهرين الطيبين واذكروا لهم قوله : « من أحبني فقد أحب الله ، ومن أطاعني فقد أطاع الله » وذكّروهم أن كل ما تنعم به البشرية اليوم من عقيدة صحيحة سليمة ، وشريعة كاملة شاملة عادلة ، تحقق للإنسان الأمن والسلام والحياة الكريمة ؛ يرجع الفضل فيها إلى الله سبحانه وتعالى ، ثم إليه .

لقد فرض الإسلام حب الرسول على الناس وأوجبه بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة : ٢٤) وقوله : ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٣١) .

قال القاضي عياض في تفسير الآية الأولى : (كفى بها حضاً وتنبهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته وفرضها ، وعظم خطرها واستحقاقه ﷺ لها ، إذ قرّع الله تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله

---

* رواه مسلم عن جابر .

ورسوله ، وأوعدهم بقوله تعالى : ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (التوبة : ٢٤) ، ثم فسّقهم بتمام الآية ، وأعلمهم أنهم ممن ضلّ ولم يهده الله ، فلا يصدق إيمان المؤمن ، ولا يذوق حلاوته ويجد بين جوانحه روعته حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما)[1] .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف به في النار »[2] .

وقال عمرو بن العاص : (ما كان أحد أحبَّ إلي من رسول الله ﷺ ، ولا أجلّ في عيني ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، حتى لو قيل لي : صفه ، ما استطعت أن أصفه)[3] .

وتعتبر قصة زيد بن الدثنة من أروع القصص في محبة المسلمين لرسول الله ﷺ ، وقد رواها البيهقي عن عروة قال : لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه ، وكان قد أُسر يوم الرجيع ، وقال له أبو سفيان بن حرب ـ وهو مشرك يومئذ ـ أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمداً في مكانه الذي هو فيه الآن مقيم تصيبه الشوكة ، وأني لجالس في أهلي ، سالم من الأذى . فقال أبو سفيان : ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد لمحمد .

كذلك قصة عبد الله بن زيد رضي الله عنه الذي جاءه ولده بخبر

(١) كتاب الشفاء ، جـ ٢ ، ص ٢٥ .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه مسلم .

وفاة النبي فصاح مبتهلاً : اللهم أذهبْ بصري حتى لا أرى بعد حبيبي محمد أحداً فاستجاب الله لدعوته وكفَّ بصره[1] .

وإذا كان الإسلام قد فرض محبة الرسول على المسلمين فذلك لحكمة بالغة ، فمعنى المحبة الطاعة ، وطاعة المسلم للرسول تجعله على الجادّة دائماً ، وتجعل الشريعة والسنة هي الطريق التي يسير عليها ، وتجعله في الوقت ذاته يترسم خطوات حبيبه ويقتدي به ، ويحسن الأسوة ، والله تعالى يقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٢١)

والرسول الكريم يقول : « من أحب قوماً حشر معهم »[2] وفي رواية : « من أحب قوماً حشره الله في زمرتهم »[3] ويقول : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ .)[4] .

وسُنّة رسول الله ﷺ ، تأتي بعد القرآن الكريم في المنزلة ، وقد جاءت لتفسّر الآيات ، وتبيّن الأحكام ، وتوضح الهدف منها ، فبعض آيات القرآن نزلت مجملة ، وبعضها نزلت عامة ، وبعضها نزلت مطلقة ، والأحاديث الشريفة هي التي بيّنت وحدّدت للناس المقصود والمراد الإلهي ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل : ٤٤) ، فهو سبحانه قد أمر

(١) المواهب ، جـ ٦ ، ص ٢٩٢ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك .

(٣) رواه الطبراني في الكبير .

(٤) رواه أبو داود والترمذي .

بالصلاة والزكاة مجملة ، وكذلك بعض العقوبات الخاصة بالزاني والسارق وشارب الخمر . وسُنّة الرسول هي التي تولّت شرح معنى الصلاة وأوقاتها وكيفيتها . وكذلك الزكاة . وهي التي بيّنت الحدّ فيما يختص بتلك العقوبات .

وهو جلّ جلاله يأمرنا باتباع الرسول ﷺ ، وتنفيذ أوامره ، وعدم مخالفتها في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ (الحشر : ٧) وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

عرِّفوا أولادكم أنه ﷺ كان بشراً ، ولكنْ بشراً يوحى إليه ، وقد صنعه ربُّه على عينه ، وأحاطه برعايته ولطفه ورحمته ، وجمع فيه رفيع الأخلاق ، وكريم الخصال .

ووقف رجل من مُسلمة الفتح ـ فتح مكة ـ أمامَ رسول الله ﷺ فأصابته رعدة من هيبته ، وتسمّر في مكانه لا يتقدم ولا يتأخر ، فقال له ﷺ : « هَوِّن عليك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة » .

وذات يوم أقبل عليه رجل شرس فظّ لم يكن قد التقى به من قبل ، وكان الرجل قد سمع به ، وسمع أنه يسب آلهة قريش فحمل سيفه ، وأقسم ليسوين مع محمد حسابه ، وبدأ الرجل حديثه غاضباً ثائراً مزمجراً ، والرسول يبتسم في هدوء ويستمع إليه في صمت (يروى . . ويضع يده على صدره) فما هي إلا لحظات . . . وتغيّر الموقف . . . لقد شعر الرجل بالخجل من نفسه ، وانكفأ على يديْ

الرسول وقدميه يقبلها معتذراً ، وهو يقول : يا محمد ، والله لقد سعَيت إليك وما على وجه الأرض أبغضُ إلي منك ، وإني لذاهب الآن عنك وما على وجه الأرض أحبُّ إليّ منك .

لقد غيّرت ابتسامة الرسول الهادئة وحلمه وصبره ؛ ثورة الرجل وعصبيته وغضبته وسخطه ، وجعلته ينقلب من أشدّ البغض إلى أشدّ الحب .

وهكذا كانت مواقفه مع معظم جبابرة قريش وطغاتها ، ويكفي أن نذكر لأولادنا موقفه ﷺ مع أولئك الذين آذوه وحاربوه في مكة ، وتآمروا على قتله ، وفعلوا الأفاعيل بأصحابه ، وكان الكل يتوقع أن ينتقم منهم أبشع انتقام يوم الفتح الأبلج ـ فتح مكة ـ ولكنه ﷺ لم يفعل بهم شيئاً من هذا ، وإنما التفت إليهم بعد الخطبة وقال : « ما ترون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : (خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم) فقال ﷺ : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . فدخل معظمهم في الإسلام على الفور ، وتأخر البعض ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، فقد حاولا قتاله في الخندمة ، فلما أرسل إليهما خالد بن الوليد ، وهزمهما شرّ هزيمة ، حاولا الهرب ، ولكن زوجة عكرمة ـ وكانت مسلمة ـ استأمنت له من رسول الله ﷺ فأمّنه ، أما صفوان فقد انطلق إلى (جدّة) ، فقال عمير بن وهب : يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر . فقال رسول الله : « هو آمن » . فقال عمير : أعطني آية يعرف بها أمانك . فأعطاه عمامته التي دخل بها ﷺ مكة يوم الفتح ، فخرج بها عمير إلى (جدة) ، حيث أدرك صفوان وهو يهم بركوب البحر . فعاد به إلى مكة في علامة العمامة النبوية الشريفة ، فلم يتعرض له أحد من

المسلمين . وقد طلب صفوان من رسول الله الخيار شهرين فأعطاه أربعة أشهر أسلم صفوان قبل انتهائها ، وقد أمر رسول الله أصحابه ، وكانوا ينادون عكرمة بابن أبي جهل ، أمرهم أن لا يفعلوا إكراماً لمشاعره ، وحرصاً على ألا تخدش كرامته بذكر ما كان من تصرفات أبيه وكفره وعناده .

هذا هو رسول الله في خلقه العظيم ، وتواضعه الكريم ولينه ورفقه ، وعزته وحبّه لأمته ، ذلك الحب الذي جعل القلوب تمتلىء بحبه وحب دينه ، وجعل أعدى الأعداء ينقلب إلى حبه و يتفانى في الإخلاص له ، والتضحية بالروح والولد والمال في سبيل الإسلام .

علّموا أولادكم كلّ هذا ، واجعلوا للسيرة العطرة أوقاتاً نسعد فيها بذكرى صاحبها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ونجدد إحساناً بتلك المفاخر الشامخة التي عاشت أكثر من ألف وأربعمائة عام ، وسوف تعيش دوماً ، نوراً ورشداً وهدى للعالمين .

اللهم عمّق في قلوبنا الإيمان . . ومحبة رسول الله ﷺ .

❋ ❋ ❋

ولد يتيماً

أخذَ الإلهُ أبَا الرسولِ ولمْ يَزَلْ ... بِرسولِهِ الفَرْدِ اليتيمِ رحيما
نفسي الفِداءُ لمفردٍ في يتمِهِ ... والدُّرُّ أحسنُ ما يكونُ يتيما

يُجمع العقلاء على أنَّ يتم رسول الله ﷺ كان بركة ورحمة ، وأن فقره كان لطفاً ونعمة . . وأن تربيته وأدبه كانا من الله عز وجلّ قال تعالى : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ وقال ﷺ : « أدّبني ربي فأحسن تأديبي » .

فكيف كان ذلك ؟

وُلد رسول الله ﷺ يتيماً : فقد وضعته أمه بعد موت أبيه ، وكان قد ذهب في عِيرِ قريش إلى الشام ، وفي طريق العودة عرّج على يثرب ، ليمتار كما أمره أبوه عبد المطلب ، فمرض . . ومات هناك ودفن .

وهكذا قدّر للرسول الكريم أن يخرج للوجود يتيماً ، ولكن الذي كتب عليه ذلك ـ جلّ جلاله ـ لم يقدّر عليه أن يذوق مرارة اليتم في هذه السن المبكرة ، فقيّض له جدّه عبد المطلب ليحل محل أبيه : فاحتضنه وسقاه من حبه وعطفه ما عوضه عن حب الأب وعطفه ، وجعل له ثلاث أمهات حانيات محبات : أمُّه التي ولدته آمنة الطاهرة الرؤوم ، وأمّه التي ربته ، حاضنته بركة البارة الودود ، وأمه المرضعة الحنون حليمة السعدية .

وفي السنة السادسة من عمره ﷺ ، خرجت به أمّه ومعها الجارية بركة إلى يثرب ، لكي تزور الجسد الثاوي هناك ، وتعرّفه بأرحامه من بني النجار ، وهم أخوال جده عبد المطلب، وكان هاشم قد تزوج

سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية فولدت عبد المطلب . وقد أقاموا ما شاء لهم الله سبحانه أن يقيموا في يثرب ، ثم اتجهوا يريدون العودة . وفي الطريق فوجئت آمنة بآلام موجعة لم تلبث آن ازدادت واشتدت فنظرت إلى ولدها وقالت في صوت أضعفه الألم :

بارَكَ الله فيكَ مِن غُلامِ
يابْنَ الذي مِن حَوْمَةِ الحِمامِ
نَجَا بِعَوْنِ الملكِ العلاَّمِ
فُودِيَ غَدَاةَ الضَّرْبِ بالسِّهامِ[1]
بِمائةٍ مِن إبلٍ سَوَامِ

ثم استجمعت ما بقي في جسدها المريض من قوة ، وقالت :
« كلُّ حيٍّ يموتُ ، وكلُّ جديدٍ بالٍ ، وكلُّ كبيرٍ يفنى ، وأنا مَيِّتَةٌ وذِكري باقٍ فقد تركتُ طيراً وولدت طهراً » .

ثم أسلمت الروح لخالقها ، وتركت ولدها مع حاضنته بركة ، التي حملته وعادت به إلى جدّه حزيناً مضاعف اليتم . فحمله جده وأسبغ عليه من حبه أضعاف أضعاف ما كان يُسبغ عليه من قبل ، فقد أدناه وقرَّبه واجتهد لئلا يشعر بمرارة اليتم ، وفقد حنان الأم . .

قال ابن إسحٰق : وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة :

فكان بنوه يجلسون حول الفراش حتى يخرج إليه عبد المطلب ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ـ قال ـ فكان رسول الله يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخِّروه بعيداً عن

(١) الروض الأنف ، وانظر : الحاوي للفتاوي ٢ / ٢٢٢ والمقصود بالسهام هنا : القداح التي ضربت على عبد الله والإبل .

الفراش ، فيقول عبد المطلب ـ إذا رأى ذلك ـ دعوا ابني فوالله إن له شأناً ، ثم يُجلسه على الفراش ، ويمسح على ظهره بيده ، ويسرّه ما يراه يصنع » .

وعندما وصل ﷺ الثامنة من عمره ، مرض جدّه مرضاً شديداً ، ولما أحس بدنوِّ أجله أوصى به ولده أبا طالب ، ولم يدَّخر أبو طالب وسعاً في العطف عليه بعد موت عبد المطلب ، فكان يرعاه ويخصه بعنايته ويصطحبه في غدوه ورواحه ، ويجتهد في التخفيف عنه لئلا يعزله اليتم ، أو يجعله يشعر بالحرمان ، وكانت فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب تبرّه وتقدّمه على أبنائها ، لما رأته من طيب خلقه ويمنه وبركته .

وكان وجود محمد ﷺ في بيت أبي طالب كوجوده مع حليمة السعدية وأسرتها ، إذا حلَّ فيهم حلَّت البركات ، ودرَّت الأرزاق .

والمعروف أنَّ أبا طالب كان رقيق الحال كثير العيال ، فكان عياله إذا أكلوا وحدهم لم يشبعوا ، وإذا أكلوا ومحمد بينهم شبعوا وفضل الطعام بعدهم ، فيقول أبو طالب لابن أخيه : « إنَّك لبارٌّ »[1] .

* اليتيم المبارك :

بدأت بركات محمد بن عبد الله ﷺ تنهال على قومه وعلى الإنسانية جمعاء وهو جنين في بطن أمه : وذلك عندما ردَّ الله سبحانه وتعالى كيد أبرهة وجيشه عن مكة وكعبتها المشرفة ، فهزمهم شرَّ هزيمة ، وحفظ للمكان المقدس قدسيته ، وصان له حرمته ، فعظَّمت العرب قريشاً وقالوا عنهم : « هؤلاء أهل الله . . لقد قاتل الله عنهم وكفاهم شرَّ

(١) ابن هشام عن ابن إسحق ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

عدوَهم » .

وكأنَّ ذلك النصر كان تمهيداً منه سبحانه وتعالى لذلك اليوم ؛ الذي ولد فيه محمد بن عبد الله برسالة تزيد هذا البيت شرفاً ، وتُعلي من قدره ، وتضاعف من عظمته ، ومحبة الناس له ، وتعلّقهم به .

ثم توالت البركات : فأعتق أبو لهب ثويبة ، جاريته الأسلمية ، عندما وافته ببشرى مولده ﷺ . فكان ذلك بركة للجارية ورحمة وعتقاً وتحرراً ، وإيذاناً بما سوف يتمّ على يدي هذا الوليد المبارك ، من انتهاء كل أنواع استعباد الإنسان لأخيه الإنسان .

ولا ينبغي أن ننسى بركاته ﷺ على حليمة السعدية ، التي جاءت من باديتها مع المرضعات يلتمسن الرضعاء في سنة شهباء ، وعُرض عليهن اليتيم فأبَيْنَ جميعاً أن يأخذنه ، وأخذته حليمة لأنها كرهت أن تعود بلا رضيع . فكان ما جعلها تقول :

« خرجنا إلى مكة على أتان عجفاء ، ومعنا ناقة مسنة . . والله ما تبضّ بقطرة ، وما ننام ليلنا من بكاء طفلنا الجائع ، فلما أخذت محمداً ووضعته في حجري ، جاد ثدياي بما شاء الله من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب ولدي حتى روي ، وناما . . .

فقام زوجي إلى ناقتنا فدرَّت باللبن فشربنا ، حتى انتهينا ريّاً وشبعاً ، فبتنا ليلتنا بخير . . وفي الصباح : ركبت الأتان العجفاء ، وحملت محمداً ، فوالله لقطعت بالركب مسافات ما يقدر على قطعها شيء من حمرهم القوية الصبية ، حتى أن صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك أربعي علينا . . أليست هذه أتانك التي كنت قد خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله إنها لهي . فيقلن لي : والله إن

لها لشأناً .

وقدمنا منازلنا في بادية بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فإذا هي مخضرَّة قد أينعت . . . وإذا غنمي شِباعاً ، فنحلب ونشرب ، ما يحلب غيرنا قطرة لبن ، حتى كان القوم يقولون لرعاتهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب . فيقول زوجي : اعلمي يا حليمة أنك أخذت نسمة مباركة »[1] .

وأتمت حليمة رضاعته ، ثم أشفقت عليه فردته إلى أمه في مكة ، وقرت به عين آمنة حتى توفيت . . . وما زال محمد بن عبد الله يتقلب في أطوار حياته المباركة حتى تزوج خديجة رضي الله عنها ، ورزق منها أولاده . . وحين قامت قريش بتجديد بناء الكعبة كان وجود الصادق الأمين بين القبائل المتناحرة عند الكعبة حول وضع الحجر الأسود في مكانه بعد البناء الجديد رحمة وإنقاذاً لهم من القتال وسفك الدماء ، فقد أصرَّ كل فريق منهم على أن يستأثر بوضع الحجر ، ولعق بعضهم الدماء واستعد للحرب ، فتدخل العقلاء . . . وقرروا تحكيم أول داخل من الباب ، وكان أول داخل هو محمد بن عبد الله الصادق الأمين . فصاحوا جميعاً بارتياح : هذا الأمين قد رضينا حكمه . وحدَّثوه بالأمر ، فقال : « هلمَّ إليَّ ثوباً » فأُتي به ، فأخذ الحجر فوضعه في الثوب بيده الكريمة ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً » ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا موضع الحجر من الكعبة ، وضعه هو ﷺ في مكانه .

وهكذا فُضَّ الخلاف وحُقنت دماء قريش .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام .

ثم بعثه الله برسالة الإسلام فعمّت البركة ، واكتملت الرحمة ، وتحقق على يدي هذا اليتيم المبارك خروج الإنسانية من دياجير الظلم والظلام إلى نور الحق والعدل والسلام .

يقول الإمام أبو زهرة[1] : الرحمة تنبع من الآلام الذاتية التي تعترض الإنسان أثناء الحياة . فهي لا تنبعث إلا ممن ذاق مرارة الضعف . وأيّ ضعف أشدّ من اليتم ؟

ولا جدال أن ارتباط حياة محمد اليتيم بأمةٍ حبشية كأم أيمن تزويد من الله سبحانه وتعالى له بزاد إنساني يشعره بأن الناس سواسية ، وأن الفضل فيمن يحسن عمله ، لا فيمن يفاخر بنسبه .

وإنها لحكمة عالية أن تكون الحاضنة التي لا يستغني عنها محمد ﷺ أَمَةً حبشية ؟ إذ لو نشأ في حضانة امرأة من عِلْيَةِ القوم ، وأكابر الأسر ، لقيل إن الفضل فيما وصل إليه من خلق ، ومن أدب إنما يرجع إلى تلك الحاضنة . . أمّا وقد تمت الحضانة على يد أَمَةٍ حبشية ، فلا مجال لمثل هذا القول ، ويكون المؤدب له ، والمربي له إنما هو الله وحده ؛ وصدق رسول الله ﷺ في كل ما قال ، وحيث يقول : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » وقد أثنى عليه الحق في كتابه الكريم فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . . خلق يتحدى كافة الطاقات البشرية ، في التربية والتوجيه ، مؤكداً بذلك أنه من عند الله وحده ، ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ . . ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ . . قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »[2]

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة : خاتم النبيين ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) رواه مسلم وأحمد والترمذي وأبو داود .

سيدهم تربية ، سيدهم نشأة ، سيدهم سلوكاً ، سيدهم هداية ، سيدهم مقاماً عند الله الذي أدبه فأحسن تأديبه ، ليكون المثل الأعلى للإنسانية جمعاء . اللهم صل وسلم وبارك عليه .

وليس غريباً ـ والحال هذه ـ أن يغضب أشد الغضب عندما يسمع صحابياً يعيّر آخر بقوله : « يا ابن السوداء » فيقول ﷺ :

« لقد طفح الكيل . . لقد طفح الكيل . . لقد طفح الكيل . . ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى » .

فمحمد ابن البيضاء ، حضنته السوداء فكان ابناً لهما معاً . وقد روي أن رسول الله كان يقول عن أم أيمن «هذه أمي بعد أمي» وكان باراً بها ، عطوفاً عليها ، يقدّم لها كلّ ما يسعدها ويدخل الفرحة على قلبها .

*** الفقيــر الغني :**

مات عبد الله وترك لولده الجارية بركة وخمسة جمال وبعض غنيمات .

وهي تركة جعلته في مصاف الفقراء ، فاضطر إلى العمل والكسب . وقد اشتغل برعي الغنم صبياً كان يرعاها بقراريط .

والقراريط حصة يأخذها من أصحابها الذين يرعى لهم يتغذى بها مع أسرة أبي طالب ، ويعطي بعضاً منها للفقراء .

ولا جدال في أن اشتغاله برعي الغنم كان تدبيراً إلٰهياً ذا حكمة عالية بليغة . فقد اشتغل الأنبياء قبله برعي الغنم وهو عملٌ يعوّد من يقوم به على الرفق بالضعفاء والعطف عليهم ، والصبر وحسن القيادة ، وتأليف النافر وإعادته إلى الجماعة .

ذكر ابن إسحق بسنده : قال رسول الله « ما من نبي إلا وقد رعى

الغنم» قيل وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا»[1] وجاء في الروض الأنف[2] : «إنما جعل الله تعالى هذا في الأنبياء ليكونوا رعاة الخلق ، ولتكون أمتهم رعاية لهم » .

وعندما شبَّ ﷺ عن الطوق اشتغل بالتجارة ، وسافر مع عمه إلى الشام .

وقد نشأ ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ، ويحميه من مباذل الجاهلية ومفاسدها ، لما أراد له سبحانه وما هيأه له من تبليغ الرسالة ، وعلو المنزلة ، والخلق العظيم .

ثم أغناه الله من فضله ، فجعله يخرج في تجارة لخديجة ، أعظم نساء عصرها ثراء وأرفعهن مكانة . وجعله يربح بها أضعاف ما كان غيره يربح . فوثقت به واطمأنت إلى أمانته وحسن تدبيره لشؤون التجارة . فتزوجت منه وجعلت أموالها كلها بين يديه يديرها كيف يشاء ، فأغناه الله بأمانته وحكمته وحسن تدبيره ، وواسته بمالها وحبها وإخلاصها . ثم رزقه الله منها الذرية الصالحة فازدادت به حباً وله وفاء وإخلاصاً .

* العزيز من أعزّه الله :

نقل أبو حيان في بحره وغيره عن جعفر الصادق رضي الله عنه قال : « إنَّما يتّم رسول الله ﷺ لئلا يكون عليه حق لمخلوق »[3] .

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٢) الروض الأنف ، ج ١ ، ص ١١ ، طبعة المغرب .

(٣) سبل الهدى ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

وقال ابن العماد في كشف الأسرار : « إنما ربّاه يتيماً لأن أساس كل كبير صغير ، وعقبى كل ضعيف قوي عزيز . وأيضاً لينظر ﷺ ، إذا وصل إلى مدارج عزّه ، إلى أوائل أمره ليعلم أن العزيز من أعزّه الله ، وأن قوته ليست من الآباء والأمهات ، ولا من المال ، بل قوته من الله تعالى . وأيضاً لكي يرحم الفقراء والأيتام » .

كان يتمه بركة ورحمة
وكان فقره لطفاً ونعمة
وربّاه ربه . . وأكرمه . .
وأدّبه فأحسن تأديبه

وبعد فصلى الله عليك أيها النبي الكريم ، الذي كان يتمه بركة ورحمة ، وكان فقره لطفاً ونعمة .

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

وإذا كان الله يصلي عليك وملائكته من فوق سبع سموات ، فما أحرى الإنسانية بأسرها ، والعالم أجمع ، أن يُصلوا على هذه النعمة العظمى والرحمة المهداة : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ ويهديهم بإذن ربهم إلى صراط مستقيم ، والله غالب على أمره ، يعلم حيث يجعل رسالته ، ومن يختص برحمته ، والله ذو فضل عظيم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

الاحتفاء بالمولد

كلما دار القمر دورته وأهلَّ شهر ربيع الأول على الكون مزهواً بليلة الثاني عشر منه ؛ تعطَّرت الآفاق بذكرى مولد الرسول ﷺ ، وأخذ الملايين من المسلمين في كل بقاع الأرض يذكرون مولده ﷺ : يطالعون سيرة الهادي البشير ﷺ ، ويتتبعون مناقبه وصفاته . إنه النبي الأمي الذي تكاملت في ذاته الإنسانيةِ جميع الصفات الكريمة الكاملة . . والأخلاق الحميدة . . والشمائل العالية ، وسمت حتى تجاوزت حدودها الذاتية . فكان المثل الأعلى ، وكان كما قال فيه العليم الخبير : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

ولا شك أن أفضل أنواع الاحتفاء بهذا المولد الشريف هو قراءة سيرته ﷺ ، وربط الناشئة بها ، وتعويد الأطفال على محبة رسول الله . . ومتابعة سيرته وسيرة آل بيته الطيبين الطاهرين وخلفائه الراشدين . . وصحابته الكرام رضوان الله عليهم جميعاً .

والحق أن من الواجب تعويد الأبناء على قراءة السيرة . . في مختلف أوقات العام ، فهذا أدعى لغرس هذا التاريخ المجيد في أذهانهم وتعلّقهم به . . وكذلك ربطهم بالسنّة المطهرة ، وتعويدهم على قراءتها على قدر ما تستوعب عقولهم . . تماماً كما نفعل في موضوع قراءة القرآن الكريم وربط الناشئة به . . وأفضل ما نعمله في هذا وذاك

اتباع سنته ﷺ والاقتداء به .. وبها فعل صحابته الكرام .. والتابعون ومن اتبعهم بإحسان .

وقد عوّدتني الوالدة رحمها الله أن نجلس ونقرأ في كتب السيرة .. وكانت والدتي لا تقرأ ولا تكتب ، ولكنها تحفظ سيرته ﷺ .. وتوصي أهلها وجيرانها بأن يتعهّدوا السيرة بالاطلاع والتداول . ولذلك ، وإن كنا نقرأها على فترات مختلفة ، إلا أنه من الواجب ربط الناشئة بها ، والحرص على مطالعتها .

ولا شك أن الاجتماع لسماع السيرة النبوية لسيد الأنبياء والمرسلين .. أمر محبب .. وفيه الكثير من الفضائل ما دام يتم في جو إسلامي ، دون ابتداع أو انحراف . وذكره ﷺ يكون في كل حين ، وإن كان في شهر ربيع الأول يكون تعلّق الناس بالاستماع إلى السيرة أشد ، نظراً لأنه الشهر الذي ولد فيه عليه الصلاة والسلام ، في شهر ولادته يكون الداعي أقوى لإقبال الناس واجتماعهم وشعورهم الفياض بارتباط الزمان بعضه ببعض .. فيتذكرون بالحاضر الماضي ، وينتقلون من الشاهد إلى الغائب »[1] .

حتى والأمر كذلك .. وحتى مع تعلق المسلمين بالاحتفاء بالمولد الشريف في شهر ربيع الأول ، إلا أن أهل العلم لا يقولون بسنّية الاحتفال بالمولد الشريف في ليلة مخصوصة ، ويعدون ذلك بدعة لم يفعلها صحابة رسول الله ﷺ .. إذ يجب الاحتفاء به ﷺ في كل وقت وحين .. نتذكره ونصلي عليه بأمر الله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ

(1) السيد الدكتور محمد علوي المالكي ، حول الاحتفال بالمولد النبوي .

يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٥٦) ولا شك أن محبة رسول الله ﷺ والفرح بمولده وسيرته أمر يجلب الخير للمسلم .. وذلك لأن الكافر قد انتفع به . فهذا أبو لهب .. عندما سمع بولادة محمد ﷺ فرح .. وأعتق جاريته ثويبة التي بشّرته بمولده . وقد جاء هذا الحديث في صحيح البخاري مرسلاً ، ويقول في ذلك الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدين الدمشقي :

إذا كانَ هذا كافرٌ جاءَ ذمُّهُ   تبَّتْ يَدَاهُ في الجحيمِ مُخَلَّدا
أتى أنَّهُ في يومِ الاثنينِ دائماً   يُخَفَّفُ عَنْهُ للسرورِ بأَحْمَدا
فما الظَّنُّ بالعبدِ الذي كانَ عمرَهُ   بأحمد مسروراً وماتَ مُوَحِّدا

وهذه القصة رواها البخاري في الصحيح في كتاب النكاح . ونقلها الحافظ ابن حجر في الفتح . ورواها الإمام عبد الرزاق الصنعاني في المصنف ، ج ٧ ، ص ٤٧٨ . والحافظ في الدلائل . وابن كثير في السيرة النبوية من البداية ، ج ١ ، ص ٢٢٤ . وابن الديبع الشيباني في حدائق الأنوار ، ج ١ ، ص ١٣٤ . والحافظ البغوي في شرح السنة ، ج ٩ ، ص ٧٦ . وابن هشام والسهيلي في الروض الأنف ، ج ٥ ، ص ١٩٢ . والعامري في بهجة المحافل ، ج ١ ، ص ٤١ . والبيهقي وهي - وإن كانت مرسلة - إلا أنها مقبولة لأجل نقل البخاري لها ، ولكونها في المناقب والخصائص ، لا في الحلال والحرام ، وطلاب العلم يعرفون الفرق في الاستدلال بالحديث بين المناقب والأحكام .

الثاني : أنه ﷺ كان يعظم يوم مولده ، ويشكر الله تعالى فيه

على نعمته الكبرى عليه ، وتفضله عليه بالوجود لهذا الوجود إذ سعد به كل موجود . وكان يعبّر عن ذلك التعظيم بالصيام كما جاء في الحديث عن أبي قتادة : أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « فيه ولدت ، وفيه أنزل علي »[1] (رواه الإمام مسلم في الصحيح في كتاب الصيام) .

وهذا في معنى الاحتفال به إلا أن الصورة مختلفة ، ولكن المعنى موجود سواء كان ذلك بصيام ، أو إطعام طعام ، أو اجتماع على ذكر ، أو صلاة على النبي ﷺ وسماع شمائله الشريفة .

الثالث : أن الفرح به ﷺ مطلوب بأمر القرآن من قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ (يونس : ٥٨) فالله تعالى أمرنا أن نفرح بالرحمة ، والنبي ﷺ أعظم الرحمة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) .

الرابع : أن النبي ﷺ كان يلاحظ ارتباط الزمان بالحوادث الدينية العظمى التي مضت وانقضت ، فإذا جاء الزمان الذي وقعت فيه كان فرصة لتذكرها ، وتعظيم يومها ، لأجلها ولأنه ظرف لها .

وقد أصّل ﷺ هذه القاعدة بنفسه ، كما صرح في الحديث : أنه ﷺ لما وصل إلى المدينة ورأى اليهود يصومون يوم عاشوراء سأل عن ذلك فقيل له : إنهم يصومونه لأن الله تعالى نجى فيه نبيهم وأغرق عدوهم فهم يصومونه شكراً لله على النعمة ، فقال ﷺ : « نحن أولى

(١) رواه مسلم في كتاب الصيام .

بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه »[1] .

الخامس : أن المولد الشريف يبعث على الصلاة والسلام المطلوبين بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٥٦) .

وهكذا كلما دار القمر وأهلّ علينا شهر ربيع الأول ؛ عكفتُ على أمهات كتب السير أتفيأ الظلال وأستروح النسمات . وأستعيد الأحداث منذ أشرق على الوجود النور المحمدي إلى التحكيم ، إلى البعثة ، إلى الدعوة بالحسنى ، إلى الهجرة ، إلى تلك المعارك التاريخية المظفّرة ضد الوثنية والشرك والضلال ، إلى إقامة الدولة الإسلامية ، إلى حجة الوداع وخطبها ، إلى انقطاع وحي السماء عن الأرض بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

نعم إنني أعكف على أمهات كتب السيرة في هذا الشهر الذي تميز بالميلاد الشريف ، وإن كانت أحداث تلك السيرة لا تغيب عني طوال العام فهي في خيالي على الدوام .. أتذكرها وآخذ منها وأستند إليها ، وأستفيد وأفيد بما حَوَتْ من عبر وعظات ومواقف للحياة وقفها سيد الأنبياء تعليماً للإنسانية وتوجيهاً وإرشاداً .

ولقد جاءتني رفيقة الدرب بالأمس وأنا مستغرق في قراءتي .. فنظرتْ إلى ما أقرأ : وكان فصلاً عن مولده ﷺ حيث يقول ابن إسحاق شيخ كتّاب السيرة : « ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة من ربيع الأول عام الفيل » .

(١) رواه مسلم .

ثم قالت : « لماذا كان مولده ﷺ الاثنين من ربيع الأول ولم يكن في أي يوم من أيام رمضان الذي أُنزل فيه القرآن وتزيّن بليلة القدر ؟ أو في أحد الأشهر الحرم التي جعل الله لها الحرمة يوم خلق السموات والأرض ؟ أو في شهر شعبان المبارك وفيه ليلة النصف المباركة ؟ » .

انتهت رفيقة الدرب من سؤالها ، ونظرت إليّ تنتظر الجواب . فنظرت بدوري إلى ما جاء بالصفحة بعد ذلك فلم أجد ما أجيبها فاستمهلتها حتى أبحث وأفكر . ورحت أسأل نفسي .. لماذا شاء الخالق العظيم أن يخرج هذا الوليد الكريم إلى الدنيا في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول بالذات؟ . . . لا بد أن لذلك حكمة بالغة . . . وعلينا أن نبحث عنها لنشرف بمعرفتها والاستفادة منها

عدت إلى أمّهات كتب السيرة أقلّب صفحاتها ، وأتتبع ما قاله العلماء والمؤرخون والمحققون محاولاً الوصول إلى تلك الحكمة : وبعد ساعات وساعات من البحث استخلصت ما يلي :

أولاً : إن ما ورد في الحديث من أن الله سبحانه وتعالى خلق الشجر يوم الاثنين[1] . وفي ذلك تنبيه عظيم ، وهو أن خلق الأقوات والأرزاق والفواكه والخيرات التي يمتد بها بنو آدم ويحيون بها ، ويتداوون وتطيب نفوسهم عند رؤيتها ، لاطمئنانهم إلى تحصيل ما يبقي حياتهم على ما جرت به حكمة الحكيم سبحانه وتعالى :

فوجوده ﷺ في هذا اليوم قرّة عين للجميع[2] . ولا جدال في أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٢٢٧ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ، للإمام محمد يوسف الصالحي ، ج ١ ، ص ٤٠٦ .

يوم الاثنين يوم مبارك قد تشرف بمولد الرسول الكريم : وقد سئل ﷺ عنه فقال : « ذاك يوم ولدت فيه ـ أو قال أنزل علي فيه »[1] .

ثانياً : إن ظهوره ﷺ في شهر ربيع فيه إشارة ظاهرة لمن تفطّن لها بالنظر إلى اشتقاق كلمة ربيع : إذ أن فيه تفاؤلاً حسناً وبشارة لأمته .

ـ قال الشيخ الإمام أبو عبد الرحمن الصقلي رحمه الله :

(لكل إنسان من اسمه نصيب . هذا في الأشخاص وكذلك في غيرها : ففصل الربيع : فيه تنشق الأرض عمّا في باطنها من نعم المولى سبحانه وتعالى ، وأرزاقه التي بها قوام العباد وفيها حياتهم ومعايشهم وصلاح أحوالهم . فتنفلق الحبة والنوى وأنواع النبات المقدرة فيها ؛ فتبهج الناظر وتبشره بلسان حالها بقدوم ينعها . وفي ذلك إشارة عظيمة إلى الاستبشار بابتداء نعم المولى سبحانه وتعالى .

فمولده ﷺ فيه من الإشارات ما تقدم ذكر بعضه ، وذلك إشارة ظاهرة من المولى تبارك وتعالى إلى التنويه بعظيم قدر النبي ، وأنه بشرى للعالمين ورحمة لهم من المهالك والمخاوف في الدارين : ومن أعظمها منّته على عباده لهدايته عليه السلام إيّاهم إلى صراط الله المستقيم » ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] (الشورى : ٥٢) .

ثالثاً : ما في شريعته ﷺ ـ من شبه الحال ـ ألا ترى أن

(١) صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، حديث رقم ١٩٧ ؛ ومسند أحمد ٢/ ٢٠٠ ؛ وسنن أبي داود ١/ ٢٤١ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ، للإمام محمد يوسف الصالحي ، ج ١ ، ص ٣٠٦ .

فصل الربيع من أعدل الفصول وأحسنها ، إذ ليس فيه برد مزعج ، ولا حرّ مقلق ، وليس في ليله ولا في نهاره طول خارق . بل كله معتدل . وهو فصل سالم من علل الخريف والشتاء والصيف . بل إن الناس تنتعش فيه وتنصلح ، فيطيب ليلهم للقيام ، ونهارهم للصيام ، فكان ذلك شبه الحال بالشريعة السمحاء التي جاء ﷺ بها »[1] .

رابعاً : أن الحكيم سبحانه وتعالى قد شاء أن تتشرف بنبيه الأزمنة والأمكنة لا أن يتشرف هو بها ، فيحصل للزمان أو المكان الذي يباشره الفضيلة العظمى والمزيّة الكبرى على ما سواه من جنسه إلا ما استثني من ذلك لأجل زيادة الأعمال فيها .

وهذا حق ، فلو أنه ﷺ ولد في رمضان أو الأشهر الحرم أو شعبان المبارك ؛ لتوهّم أناس أنه يتشرف بها لما لها من قدر وما فضّلت به من مزايا . ولكن الحكيم جلّ جلاله شاء له أن يولد في شهر ربيع الأول ليشرُف به هذا الشهرُ ويزدان ويزهو : وتظهر عناية العلي القدير سبحانه وتعالى بنبيه الكريم وحفاوته به ﷺ .

بِكَ بَشَّرَ اللهُ السَّماءَ فَزُيِّنَتْ وَتَضَوَّعَتْ مِسْكاً بِكَ الغَبراءُ
يَوْمٌ يَتِيهُ على الزَّمانِ ، صباحُهُ ومساؤُه بِمُحَمَّدٍ وَضَّاءُ

وخلاصة القول أن الاحتفاء بالمولد هو إحياء لذكرى المصطفى ﷺ . . وعندما يكون في إطار مجالس العلم والمواعظ . . وآداب الدين

(1) سبل الهدى والرشاد ، للإمام محمد يوسف الصالحي ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

الإسلامي ، فهو أمر استحسنه أهل العلم لما في ذلك من ارتباط بسيرته ﷺ ، وتتبع لمعجزاته وسيرته وشمائله ، وقد أمر الله بالاقتداء به والسير على نهجه ، وهو قدوتنا عليه الصلاة والسلام . .

ومعرفة شمائله وصفاته تستدعي كمال الإيمان به ﷺ .

وتتبُّع السيرة يعمق المحبة ويرسخها في ا لنفوس المؤمنة .

والله عز وجل يقول في كتابه الكريم : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (هود : ١٢٠) .

فإذا كان في قصص الأنبياء تثبيت لفؤاده الشريف ، فإن في قصص حياته المباركة أعظم التثبيت لقلوبنا ، ونحن أحوج إلى التثبيت ليكون أسوة لنا ولأبنائنا . . . عسى أن نكون على دربه من السالكين ، وإلى سبيله من الداعين ، وعلى حوضه من الواردين .

محمداً

كانت بركة (أم أيمن) تهرول عبر السوق مسرعة ، والفرح يعلو وجهها عندما اصطدمت بها سليمة الخزاعية ، فصاحت فيها :

ـ ماذا دهاك يا بركة . . ولماذا تهرولين هكذا ؟

ـ إني ذاهبة إلى الصادق الأمين بالبشرى .

أيَّة بشرى ؟

ـ لقد وضعت الطاهرةُ ابنتَها الرابعة .

ـ فحدَّقت سليمة فيها مذهولة وقالت :

ـ أتبشِّرينه بالأنثى الرابعة ؟

ـ أجل .

فاقتربت منها سليمة وهمست :

ـ اصدقيني القول يا بركة .

ـ فيم ؟

ـ كيف يتلقَّى سيِّدك خبر ولادة الأنثى ؟

ضحكت بركة وقالت :

ـ سؤالـك هذا ردَّني إلى اليوم الـذي وضعتْ فيه الطاهرة ابنتها الأولى ـ زينب ـ وأُمرت بنقل الخبر إلى الصادق الأمين ، فذهبت إليه وأنا أرتعد خوفاً ، وأتوقع أن يدفنني مع الوليدة في حفرة واحدة ، ولكنني

فوجئت بها أدهشني ، وأثار عجبي .

ـ كيف يا بركة ؟

ـ ما كاد يسمع أن زوجته قد وضعت أنثى ، حتى أشرق وجهه بالفرح ، وأسرع إلى الوليدة فحملها سعيداً بها ، ثم قبَّلها وهنَّأ أمها بها ، ثم أمر بذبح الذبائح ، ومدّ الولائم احتفالاً بمولدها .

قالت بركة هذا وانطلقت تهرول من جديد ، بينما وقفت سليمة واجمة تفكر ، لقد ذاقت مرارة الثكل مرات ثلاث عندما وأد زوجها فلذات كبدها ، ولم يعبأ بتوسّلاتها ، أو يرقّ لبكائها ونحيبها ، وكذلك يفعل معظم الآباء في بيئتها ، إنهم مفتونون بوأد البنات ، والقبر عندهم خير الأصهار ، ومن لا يئد البنت يسومها الذلّ والهوان ، ويقول لها وهي في الطريق إلى بيت زوجها إن كان من أقاربه : « أيسرتِ وأذكرتِ ولا آنثتِ ، وجعل الله منك عدداً وعزاً وجلداً » وإن كان غريباً قال لها : « لا أيسرتِ ولا أذكرتِ فإنك تدنين البعداء وتلدين الغرباء »[1] .

أكبرت سليمة فعل الصادق الأمين ، وتمنَّت لو أن كل الآباء ـ وفي مقدمتهم زوجها ـ فعلوا فعله ، ولم تكن تدري في وقفتها آنذاك ، أن محمداً هو الرحمة المهداة إلى الدنيا ، ولو قدّر لحجب الغيب أن ترتفع عن عينها ، لرأت الصادق الأمين وقد بعث رسولاً بالدين الحق الذي حرّم الوأد ، وكرّم الأنثى ، أكّد أنها والرجل من مصدر واحد ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

(1) كتاب المحبّر ، لابن حبيب ، ص ٣١٠ .

مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ (النساء : ١) وجاء بتشريع كامل شامل ينظم وضع المرأة في المجتمع ، ويكفل لها الحياة الكريمة بنتاً ، وأختاً ، وزوجاً ، وأماً .

لقد كان موقف رسول الله ﷺ من ولادة البنات ؛ موقف الأب الإنسان الذي يستقبل الواحدة منهن سعيداً مشرق الوجه ، متهلّل الأسارير ، ليكون قدوة لأولئك الذين قست قلوبهم ، وغلظت أكبادهم ، وخلت نفوسهم من الرحمة ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل : ٥٨ ـ ٥٩) وكيف لا يكون رسول الله كذلك والله سبحانه وتعالى يقول عنه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) .

* ثمار الزوجة الأولى :

رزق رسول الله ﷺ من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ـ زوجته الأولى ـ بأربع بنات ، هن : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة الزهراء . . وبين رعاية رسول الله ، وحبه وحدبه وحنانه ، وعناية السيدة خديجة رضي الله عنها ، وخبرتها في الأمومة والتربية ؛ نشأت الزهرات الأربع في جو من الجلال والمجد والشرف والطهر .

وقد تزوجت زينب من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع ، وتزوجت رقية وأم كلثوم من عتبة وعتيبة ولدي أبي لهب عم الرسول ، وبقيت فاطمة في البيت فقد كانت دون سن الزواج .

ولما بُعث رسول الله ﷺ ، وأسلمت خديجة أسلمت البنات الأربع بعدها ، ومضى الرسول الكريم ينفذ أمر الله ويدعو الناس إلى الإسلام ، ولكن قريشاً أبت الاستجابة ، واجتهدت في الكيد له ما استطاعت ذلك ، واجتمع زعماؤها يوماً ، فتشاوروا في أمره ﷺ ، وقال أحدهم :

ـ إنكم قد حملتم عنه همومه . أبو العاص تعيش زينب في كنفه ، ورقية وأم كلثوم تعيشان في عصمة عتبة وعتيبة . . طلِّقوا بنات محمد لينشغل بأمورهن عنا وعن هذه البدعة التي يريد أن يفرضها علينا .

وتردد الأزواج الثلاثة ، فقد كان كل منهم يحب زوجته ، ولا يجد لها مثيلاً ، أو يفكر في اتخاذ أخرى غيرها ، ولكن أم جميل الكافرة الجحود الحقود ، صممت على تنفيذ أمر قريش وقالت لولديها :

ـ رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلِّقا ابنتي محمد وتردَّانهما إليه . فاستجاب الولدان ونفذا لأمهما رغبتها ، فعادت رقية وأم كلثوم إلى بيت أبيهما ، ولكن إقامتهما فيه لم تطل ، فقد تزوجت رقية من الشهم الكريم ، أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو عثمان بن عفان . وهاجر بها إلى الحبشة ، فكانا أول المهاجرين ، ثم هاجر بها إلى المدينة فمرضت وماتت بها يوم جاء البشير إلى المدينة بانتصار المسلمين في بدر .

وقد حزن عثمان رضي الله عنه حزناً شديداً على انقطاع صلة المصاهرة بينه وبين رسول الله بوفاتها ، وقد رآه ﷺ على تلك الحال فسأله عن ذلك ، فقال :

ـ وهل دخل على أحد ما دخل عليَّ يا رسول الله ؟ ماتت ابنة رسول الله التي كانت عندي وانقطع ظهري ، وانقطع الصهر الذي بيني وبينك .

فطيَّب النبي ﷺ خاطره ، وزوَّجه من أختها أم كلثوم فبقيت معه إلى أن توفيت ، في السنة التاسعة للهجرة أي بعد بنائه بها بست سنوات[1] . وقيل إنه سمِّي بذي النورين لأنه تزوج رقية وأم كلثوم ابنتي النبي ﷺ ، ولم يُعلم أحد تزوج بنتي نبي غيره ، وقيل إنه سمي كذلك لأن النبي ﷺ قال فيه : « ذاك امرؤ يدعى في السماء ذا النورين »[2] والمعروف أنه كان يختم القرآن كل ليلة في صلاته . فالقرآن نور ، وقيام الليل نور .

أما أبو العاص فقد قالت له قريش : « فارق صاحبتك ونحن نزوِّجك أيَّ امرأة من قريش شئت » فقال : « لا والله لا أفارق صاحبتي ، وما أحب أن لي بامرأتي أفضل امرأة من قريش »[3] .

وتوالت الأحداث مسرعة فمات أبو طالب ولحقت به خديجة بعد أيام ، ثم هاجر الرسول ﷺ ، واستقر بأصحابه في المدينة استقرار أصحاب الدار في دارهم ، ثم وقعت معركة بدر التي قتل فيها أبطال قريش وصناديدها ، وأُسر عدد كبير من رجالاتها وبينهم أبو العاص . واستعد أهل أبي العاص لفدائه ، وكان الفداء قد وصل إلى أربعة

(١) ذو النورين عثمان بن عفان ، للعقاد ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج (٢) ، ص ٢١٩ .

(٣) رواه الدارقطني في الأفراد .

آلاف درهم ، ولكن زينب رأت أن تفتديه بما هو أعز وأثمن من المال ، فأرسلت إلى أبيها قلادة كانت لأمها وقد أهدتها إليها يوم زفافها إلى أبي العاص ، يقول ابن إسحق : « فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها مالها : فافعلوا » فقالوا : نعم يا رسول الله . وردوا عليها الذي لها » .

وأخذ رسول الله ﷺ على أبي العاص أن يخلي سبيل زينب فوعده خيراً ، ولما وصل إلى مكة أمر أخاه كنانة فخرج بها نهاراً ، وهي في هودج . . فتصدى للركب هبار بن الأسود وآخر ، فروّعها هبار بالرمح ، وهي في هودجها ـ وكانت حاملاً ـ فسقطت وطرحت ما في بطنها ، فبرك كنانة ونثر كنانته ، وصاح في غضب : والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً . فتكركر الناس ، وجاء أبو سفيان فعاتب كنانة لخروجه بها نهاراً ، وطلب منه أن يعود وينتظر حتى تهدأ الناس ثم يخرج بها ليلاً . فتمَّ ذلك .

ولما علم رسول الله ﷺ بالحادث غضب وأمر بتحريق هبار وصاحبه . فلما كان الغد قال : « إني كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما ، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذِّب بالنار إلا الله ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما »[١] .

ولجأ أبو العاص بعد ذلك إلى زينب مستجيراً ، بعد أن لقيته سرية فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلاً ، فأصابوا تجارته التي كان عائداً بها من الشام إلى مكة ، فخرجت زينب حتى المسجد ،

(١) السيرة ، لابن إسحق ، ج (٢) ، ص ٢٢٣ .

وكان ﷺ يكبِّر والناس معه يكبِّرون فصاحت : أيها الناس إني أجرت أبا العاص بن الربيع . فلما سلَّم ﷺ من الصلاة قال : « أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : نعم . قال : « والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعت . . إنه يجير على المسلمين أدناهم » ، ثم انصرف ودخل على ابنته فقال : « أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له »[١] .

وقد ردَّ المسلمون على أبي العاص تجارته فعاد إلى مكة ، وسلَّم الأموال إلى أصحابها ثم قال لهم : « أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والله ما منعني من الإسلام عند محمد إلا تخوّفي أن تظنوا بي الظنون ، وأني أردت أكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم ، وفرغت منها ، أسلمت » .

ثم خرج من مكة حتى قدم المدينة ، والتقى برسول الله ، فأثنى عليه خيراً ، وردَّ عليه زينب . وبعد سنة من ذلك تُوفيت زينب وتركت « أمامة » و« علي » لأبي العاص ، لعله يجد فيهما العزاء ، وقيل إن أمامة كانت صورة مصغرة من أمها زينب ، وإن رسول الله كان يجد فيها ما يخفف حزنه على أمها ، فكان يأنس بها ويسبغ عليها الكثير من حبه وعطفه وحنانه . وفي الصحيحين أنه ﷺ كان يحملها على عاتقه ويصلِّي بها فإذا سجد وضعها حتى يقضي صلاته ، ثم يعود فيحملها .

أما رابعة البنات فهي فاطمة الزهراء ، التي تقول عنها عائشة رضي الله عنها : « ما رأيت قط أفضل من فاطمة غير أبيها »[٢] .

(١) السيرة ، ج (٢) ، ص ٢٣٤ .
(٢) رواه الطبراني في الأوسط وأبو يعلي .

وقال رسول الله ﷺ : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »[١] وقال فيها أيضاً : « فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني »[٢] .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « كانت إذا دخلت على رسول الله ﷺ قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه ، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها »[٣] وقالت عائشة رضي الله عنها : « أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيَها مشيُ رسول الله فقال : « مرحباً يا بنتي » ثم أجلسها عن يمينه وأسرَّ إليها حديثاً فبكت ، ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكت ، فقلت : ما رأيت ـ كاليوم ـ أقرب فرحاً إلى حزن فسألتها عما قال رسول الله لها فقالت : ما كنت لأفشي على رسول الله سِرَّه . فلما قُبض رسول الله ﷺ سألتها فأخبرتني أنه قال : « إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة ، وإنه عارضني العام مرتين ، وما أراه إلا قد حضر أجلي ، وإنك أول أهل بيتي لحوقاً بي ، ونعم السلف أنا لك » فبكيتُ فقال : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين ؟ » ، فضحكتُ[٤] .

ولدت الزهراء يوم أرادت قريش أن تضع الحجر في مكانه من الكعبة وكانت قريش تعيد بناء الكعبة ـ فاختلفت فيمن يضع الحجر في مكانه ، وكادوا يقتتلون ، ثم ارتضوا أن يحكموا أول من يدخل عليهم المسجد ، فكان الداخل محمداً ، فقالوا : هذا الأمين ، رضينا به حكماً ! فأشار عليهم أن يبسطوا رداء ويحمل كل رئيس عشيرة بطرف .. وأخذ هو الحجر ووضعه في مكانه فانطفأت الفتنة !!

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي .

(٤) متفق عليه .

وتوالت الأيام والسنون وبلغ الأمين أربعين سنة ، وأذن الله لنوره ووحيه أن يتنزل على قلبه فدعا إلى الإسلام أهله وأصدقاءه سِراً ، ومكث على ذلك ثلاث سنين فأنزل الله عليه قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فصنع وليمة ودعا الناس إليها ، ثم صدع بأمر ربه ، أخذ رسول الله ينادي في قومه : « يا بني عبد مناف : لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب : لا أغني عنك من الله شيئاً . يا صفية بنت عبد المطلب : لا أغني عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد : لا أغني عنك من الله شيئاً » .

ولقد عانت فاطمة الكثير وتألمت أشد الألم من تصرفات قريش الجائرة المؤذية وهي طفلة صغيرة ، فقد عاشت معه ﷺ أيام الحصار ، ورأت عصابة المشركين وهي تجادله بجوار الكعبة وتقول له : أنت الذي تقول كذا وكذا في آلهتنا ؟ وسمعته ﷺ يقول : « نعم أنا الذي يقول ذلك » ، وشهدتْ أحدَهم وهو يأخذ بمجمع ردائه ﷺ يريد أن يخنقه ، بينما أبو بكر يبعدهم عنه صائحاً ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ؟ ﴾ .

رأت فاطمة وشهدت وسمعت هذا .. وبكت أشدَّ البكاء لهذا كله : كذلك كانت بالبيت العتيق ، وعقبة بن أبي معيط يضع ـ سلا جزور ـ على ظهر رسول الله وهو ساجد ، فتقدمت من أبيها ورفعت عن ظهره ما وضعه الآثم عقبة . ودعت عليه . فرفع رسول الله رأسه فدعا : « اللهم عليك بالملأ من قريش ، أبي جهل وعتبة وشيبة وعقبة بن أبي معيط والوليد بن عتبة وأمية بن خلف » .

كانت الزهراء في الثامنة عشرة من عمرها عندما تقدم أبو بكر رضي الله عنه لخطبتها فقال له رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر ، انتظرْ بها القضاء » ، فجاء عمر رضي الله عنه فخطبها ، فقال له ﷺ القول نفسه ، فذهب عليّ كرَّم الله وجهه على استحياء ليخطبها ، قال : فلما قعدت بين يديه ﷺ أفحمت فما أستطيع أن أتكلم ، فقال : « ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ » فسكتُّ فقال : « لعلك جئت تخطب فاطمة » قلت : نعم . فزوجه رسول الله ﷺ فاطمة .

وفي ليلة زواج عليّ من فاطمة رضي الله عنها دعا رسول الله بماء فتوضأ منه ثم أفرغه عليها وقال : « اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما »[1] ، قال علي كرم الله وجهه لرسول الله ﷺ : « أيُّنا أحب إليك .. أنا أم فاطمة ؟ » فقال عليه أزكى الصلاة والسلام : فاطمة أحب إليَّ منك ، وأنت أعزّ عليَّ منها » .

وتظهر محبة رسول الله ﷺ للزهراء ، وأبوّته الرحيمة ، يوم عرف أن علياً قد قرر الزواج بمخزومية هي بنت عمرو بن هشام (أبو جهل) عدو الله وعدو رسوله ، فذهب ﷺ إلى المسجد ووقف على المنبر غاضباً ، وخطب أصحابه فقال : « إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن يُنكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلّق ابنتي وينكح ابنتهم . فإن ابنتي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها وإني أتخوف أن تفتن في دينها » .

(١) رواه ابن سعد .

وقد ذكر ﷺ صهره أبا العاص بن الربيع وأثنى عليه في مصاهرته إياه أحسنَ الثناء ثم قال : « حدَّثني فصدقني ووعدني فأوفى لي ، وإني لست أحرِّم حلالاً ، ولا أحلّ حراماً ولكنَّ الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله في بيت واحد أبداً »[1] .

وروى الترمذي أن عائشة رضي الله عنها سئلت : أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ قالت : فاطمة ، قيل: ومن الرجال ؟ قالت : زوجها إن كان ـ ما علمت ـ صواماً قواماً .

وقد أنجبت الزهراء الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم ، وقد أحبهم الرسول حباً كبيراً ، وكان يسبغ عليهم فيضاً من عطفه وحنانه ، خاصة الحسن والحسين اللذين كان يقول فيهما : « اللهم إني أحبهما .. فأحبَّهما وأحبَّ من يحبهما »[2] . وفي رواية : « اللهم إني أحبهما فأحبهما وأبغض من أبغضهما »[3] .

وروي أن رسول الله جاء ومعه علي والحسن والحسين آخذاً كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة ، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ، ثم لف عليهما كساءه وتلا الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٣٣) وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي وهامتي ، أذهب عنهم الرجس»[4] .

(١) صحيح البخاري ٥٣٨ / ٢٩ ، صحيح مسلم ٤٤/ ١٤ ، سنن أبي داود كتاب ١٢ ، سنن الترمذي كتاب ٤٦ ، سنن ابن ماجه ٩/ ٥٦ ، مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٢٦ ـ ٣٢٨ .

(٢) رواه الترمذي في المناقب .

(٣) رواه الطبراني في الكبير وابن أبي شيبة .

(٤) رواه الترمذي في المناقب .

ومرة أخري تتجلي عواطف الأبوة بأبدع صورها في تصرفاته ﷺ ، فيري حاملاً أحد حفيديه على كتفه حتى إذا بلغ المسجد وقام للصلاة وضعه إلى جانبه في رفق ، وأخذ يؤمّ الناس الذين يأخذهم العجب ، إذ يجدونه يطيل في السجود على غير عادته فلما قُضيت الصلاة سألوه :

ـ يا رسول الله ، إنك سجدت سجدةً أطلتَها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك .

فقال ﷺ :

ـ « كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلَني ، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته »[1] .

ويرى وهو آخذ بكتفي الحسين وقدماه على قدميه ﷺ يرقصه قائلاً : « ترق . . ترق » فما يزال الصبي يرقى حتي يضع قدميه على صدر جده ، فيقول له : « افتح فاك » فيفتحه ويقبله ﷺ وهو يقول : « اللهم إني أحبه فأحِبْه وأحببْ مَنْ يحبه »[2] .

وقد تعجب أحد الصحابة لأن رسول الله ﷺ يقبِّل حفيده وقال : « إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ! فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال : « من لا يَرحم لا يُرحم »[3] .

وفي مرض الموت عندما اشتد الوجع برسول الله ، ورأته فاطمة يتغشاه الكرب فقالت رضي الله عنها : واكرب أبتاه . فقال : ليس علي أبيك كرب بعد اليوم ، فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ،

(١) رواه النسائي والإمام أحمد في مسنده .

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ٤ / ١٨٨٢ .

(٣) متفق عليه .

فلما دفن قالت فاطمة رضي الله عنها : أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟![1] .

وبعد ستة شهور[2] على ارتفاع روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، وافت المنية فاطمةَ الزهراء . فكانت أول أهل بيته ﷺ لحوقاً به .

وقد رزق رسول الله ﷺ من خديجة أيضاً بالقاسم ، وبه كان يكنّى ، ثم رزق بعبد الله ، وهو الطاهر الطيِّب وقد سمي كذلك لأنه وُلد بعد النبوّة[3] ، وقد توفيا صغيرين ، وقيل إن القاسم بلغ سن المشي لكن رضاعته لم تكن قد تمت عندما مات . ويذكر الإمام السهيلي في الروض الأنف أيضاً : أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة بعد المبعث فوجدها تبكي ، فقالت : يا رسول الله درّت لبنيّة القاسم . . فلو كان عاش يستكمل رضاعته ؟ فقال : « إن له مرضعاً في الجنة تستكمل رضاعته » .

* إبراهيم قرة العين :

ورزق ﷺ بولده إبراهيم من مارية القبطية ، وقد كان شديد الشبه بأبيه ، وكان هذا الشبه يزداد وضوحاً كلّما تقدمت به الأيام ، وقد تعلق به رسول الله تعلّقاً شديداً ، ولعل السبب في ذلك أنه جاء بعد موت القاسم والطاهر وموت زينب ورقية وأم كلثوم ، وموت خديجة

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري .

(٣) الروض الأنف ، للسهيلي ١ / ١٢٣ ، الإصابة ٨/ ٦١ ، البسيرة ١ / ٢٠٢ .

رضي الله عنهم أجمعين . لكن سعادة رسول الله بولده إبراهيم لم تطل فقد مرض إبراهيم مرضاً شديداً . . فلما كان في الاحتضار ، أُخبر النبي بأمره فاستند إلى ذراع عبد الرحمن بن عوف لشدة ألمه ، وسارا حتى أتيا إلى النخل الذي كان به إبراهيم ، ودخل رسول الله فوجده في حجر أمه يجود بأنفاسه ، فأخذه ووضعه في حجره وقد ملك الحزن عليه فؤاده . وبدت صورة الألم في قسمات وجهه ثم قال : « إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئاً » ثم وجم ﷺ وذرفت عيناه ، والغلام يجود بأنفاسه وأمه وأختها تصيحان فلا ينهاهما رسول الله[1] ، فلما استوى إبراهيم جثماناً لا حراك به ولا حياة فيه ، زادت عينا محمد ﷺ تهتاناً وهو يقول : « يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنَّا عليك أشدَّ من هذا » ثم صمت ﷺ لحظات قال بعدها : «إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[2] .

وأتى النبي ﷺ يزور سعد بن عبادة ـ وكان قد اشتكى ، فوجده في غاشية أهله . . فبكى النبي ﷺ ، فلما رأى القوم بكاءه بكوا ، فقال : (ألا تسمعون ؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا ـ وأشار إلى لسانه ـ أو يرحم)[3] .

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس فرأى المسلمون في ذلك معجزة ، وقالوا : إنها انكسفت لموته . فانزعج ﷺ وخطبهم فقال :

---

(1) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٤٦٤ .

(2) رواه البخاري .

(3) متفق عليه .

« إن الشمسَ والقمرَ آيتان من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد أو حياته . . فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة»[1] .

أي موقف جليل هذا ؟

بل أي عظمة هذه التي تجعل رسول الله ﷺ وهو في أشد حالات الحزن المفجع ، لا ينسى رسالته ولا يسكت عن الصدق والحق بل يخرج من هول مصابه ليخطب في الناس مصححاً المفاهيم ، موضحاً حقيقة ما ظنه الناس معجزة .

حقاً لقد أحبَّ رسول الله أولاده حباً عظيماً ، ولكن حبه للرسالة كان أعظم وأجلّ .

---

(1) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

الآن يا عمر

ما من مسلم إلا يعلم أن محبة الرسول ﷺ ذات علاقة مباشرة بالقمة الإيمانية . فهذا رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم يقول عن معنى محبته وأبعادها : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين »[1] .

هكذا يعلمنا كيف تكون محبته ﷺ . . وهذا ثاني الخلفاء الناطق بالحق والصواب يقول لرسول الله ﷺ : « لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي » . ويجيبه عليه السلام : « لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك » . فقال عمر رضي الله عنه : « فأنت الآن أحب إلي من نفسي » فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر ؟ ![2] . . » .

وهذا أبو بكر الصديق ثاني اثنين . . وقد قام في الناس خطيباً يدعوهم إلى الإسلام بمكة ، فأخذوه في ردائه وضربوه فأغمي عليه ، فلما أفاق قال : أروني محمداً ﷺ . فلما أتت به أمه في دار الأرقم قال : زال عني كل ما أجد برؤيتك يا رسول الله .

---

(١) رواه البخاري عن أنس .

(٢) رواه مسلم .

رضي الله عنك يا خليفة رسول الله ، تتحمل كل هذا الأذى وتقاسي ألوان العنت ، ولا يشغل بالك ولا يقلقك غير سلامة رسول الله . وعندما اطمأنّت نفسك إلى سلامته ، عندها فقط ، سرت العافية في جسدك وارتحتَ وزالت آلامك ومتاعبك .

يا لها من صورة رائعة لمعنى الحب الصادق في الله تبارك وتعالى ، الحب الذي جعل رسولَ الله وسلامتَه وعافيتَه أحبَّ إليك من سلامتك ، فهو أحب إليك من نفسك التي بين جنبيك . . هنيئاً لك يا سيدي بهذا السموّ النفسي ، وهذه الأثرة التي تُعلّمنا فيها كيف يكون حب رسول الله ﷺ .

ولا غرابة . . فأنت أوّلُ من صدّقه ، وخيرٌ من آزره ، وأصدق من صادقه ، وأشجع من خلفه في أمته وعض على سنته ، وقد كان هواك وتصرفاتك تبعاً لما جاء به عليه السلام .

ولا غرابة . . أن يسير الناس على هذا النحو ، ويطبقوا المنهج نفسه في محبته ﷺ . فهذه امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد . . وكانوا يقاتلون مع رسول الله ﷺ ، وعندما أخبروها بموتهم ، كانت سلامة رسول الله هي التي تشغلها عن كل شيء ، وقبل أن تفكر في مصيبتها في هؤلاء جميعاً . . ولهذا فقد صرخت : ما فعل برسول الله ؟ . . هكذا في لهفة وقلق على رسول الله . قالوا لها : هو بخير بحمد الله كما تحبين . وعندها فقط . . اطمأنت رغم فداحة مصيبتها وعظم مصابها . وقالت : أرونيه حتى أنظر إليه . فلما رأته قالت كلمتها المشهورة ، والتي ذهبت نوراً مشعاً عبر التاريخ يشهد

بصدق إيمان الأنصارية وعميق حبها لله ورسوله : « كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله » .

ما أروع هذه الصورة الإيمانية لهذه المرأة الأنصارية التي أعطت درساً بليغاً في أبعاد محبة رسول الله ﷺ ، وإنا لنحس ونستشعر أبعاد هذا الحب اليوم ، ونحن نقرأ قصة هذه الأنصارية : فهو حب صادق يتجدد عبيره عبر التاريخ .

وهذا غَزيّة حين بَطّنَ رسولَ الله ﷺ ، يحميه في إحدى الغزوات ، والنبل يقع على ظهره وهو منكفىء على رسول الله ﷺ حتى استشهد غزيّة وهو على رأسه الشريف ﷺ .

وفي غزوة أحد . . قال طلحة رضي الله عنه : نحري دون نحرك يا رسول الله . . وشلّت يدُه يومها . وقال ذلك أيضاً أبو دجانة رضي الله عنه فوقع سهم في نحره . وكذلك قالها قتادة رضي الله عنه . . وأصيب في عينه بسهم فردّها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينيه . .

هكذا كانوا يتسابقون للذود عن رسول الله ﷺ ، ويقدمون أرواحهم فداء له ، ويتسابقون في سبيل رضاه وراحته ، ويتسارعون في سبيل دفع الأذى عنه .

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . وصدقوا في محبتهم لرسول الله فبذلوا أموالهم وأولادهم وأنفسهم . . سخية من أجل سلامة حبيبهم رسول الله . .

صدق في المحبة ، وثبات في العقيدة ، ووفاء ما بعده من وفاء ، رضي الله عنهم جميعاً . . سطّروا لنا أجمل صور المحبة ، وأصدق

أشكالها . وكانوا موقنين بأن النبي الكريم أولى بالمؤمنين من أنفسهم . وكانوا رضوان الله عليهم حريصين على أن يكون هواهم وتصرفاتهم تبعاً لما جاء به رسول الله ، محبة لله ولرسوله ﷺ ، واستجابة لأمر الله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ . . ﴾ (آل عمران : ٣١) وقد كانوا يتسابقون إليه في السلم أيضاً كما يتسابقون للدفاع عنه عند الحروب .

وقد ذكر أصحاب السِّيَر أن قريشاً أرسلت إلى رسول الله ﷺ وهو بالحديبية ، فرأى رسولهم رسولَ الله ﷺ وهو يتوضأ ، فوجد الناس يمسحون بوضوء رسول الله ﷺ . فلما رجع إلى مكة قال رسول قريش : يا أهل مكة كيف يُسال دم محمد وأصحابه لا يتركون قطرات وضوئه تقع على الأرض ، وكانوا يقتتلون على وضوئه ، فمن لم يجد شيئاً أخذ يد صاحبه فمسح بها وجهه ! . .

وهـذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : كان رسول الله ﷺ أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ . . . صلى الله وسلم عليك يا سيدي يا رسول الله وقد أرسلك الله رحمة للعالمين ، وجعلك على خلق عظيم بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . . . ﴾

ولا غرابة . . فقد اصطفاك رب العالمين ، وصلى عليك وملائكته ، وختم بك الرسالات وأعطاك الشفاعة العظمى ، ووعدك

أن يعطيك في أمتك ما يسرك فقال لك : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ وأعطاك المقام المحمود ، والحوض المورود ، والوسيلة التي لا ينالها إلا جنابك ، وصلى عليك ذو الجلال صلوات زكية دائمة لا تنقطع بركاتها ، ولا ينفد عطاؤها ما دامت السموات والأرض وسلم تسليماً ، وتعبد ملائكته الكرام بالصلاة والسلام عليك ، ثم أمر عباده المؤمنين . بالصلاة والسلام عليك فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب ، ٥٦) .

وقد روى مسلم عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »[1] .

ولا شك إذاً في أن محبة رسول الله ﷺ هي تمام الإيمان . وهي التي حببت لهؤلاء الصحابة ولمن سار على نهجهم التضحية والفداء في سبيل دين الله ، والذود عن النبي الكريم .

لذلك يظل عمل المسلم ناقصاً ، ويبقى إيمانه غير مكتمل . . إذا لم يكن رسول الله ﷺ أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين كما مر في الحديث .

ولعله من المناسب إيضاح أن المطلوب من المسلم أن يستقر الإيمان كاملاً غير ناقص في قلبه وجوارحه ، ولكن هذا لا يأتي دفعة واحدة . دائماً يبدأ بالإسلام فإذا صدق في إسلامه ، وخضع كيانه

(١) رواه مسلم والترمذي .

للدِّين ، وخضعت جوارحه لكلمة التوحيد ولما جاء به الرسول ﷺ . دخل الإيمان قلبه ، ثم يأتي بعد ذلك التربية السليمة التي تنمّي محبة الرسول في قلوب الناشئة ، وتأخذ بيدهم نحو الإيمان الكامل الذي يقوم على محبة الله عز وجل ، ومحبة رسول الله ﷺ .

وها هو ذا القرآن . . يوضّح هذه الحقيقة في النظر إلى أولئك النفر الذين دخلوا الإسلام لأول مرة فأسلموا ولكن لم يكتمل الإيمان في قلوبهم :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٤) .

إن اكتمال الإيمان لا يتحقق إلا بمحبته ﷺ وتعظيمه كما أمر الله . . ذلك التعظيم الذي لا يخالطه شرك ولا اعتقاد ربوبية فيه ﷺ ، كما جاء في حديث البخاري : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم »[1].

وفي رواية الدارمي : « لا تطروني كما تطري النصارى عيسى بن مريم » .

وقد ضلت النصارى فقالت : « إن الله هو المسيح ابن مريم »[2]. ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[3] ، وقالوا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ ، وهذا كله بهتان عظيم وظلم كبير ، وقد

---

(١) رواه البخاري .

(٢) المائدة ، الآية ١٧ .

(٣) التوبة ، الآية ٣٠ .

(٤) المائدة ، الآية ٧٣ .

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وإنها لمناسبة طيبة . . نؤمن فيها ساعة . . نملأ قلوبنا وقلوب الناشئة بمحبة رسول الله ﷺ وتلاوة سيرته ، والتعرّف على شمائله ، لا سيّما في شهر ميلاده ﷺ ، الذي برز فيه نوره ﷺ للوجود فأضاء الكون وأسعده ، وأخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور .

فنعمت الذكرى هذه . . وحبّذا زادُ المسلم من حبِّه ﷺ دائماً وأبداً . . . وفي هذا الشهر الكريم . . وقد جاء الحديث جواباً عن سؤال السائل عن صيام يوم الاثنين . . فقال رسول الله ﷺ : « هذا يوم ولدت فيه ، وأنزل عليّ فيه » .

وهكذا يعلمنا رسول الله ﷺ : أن تذكر النعمة في يوم النعمة أمر مشروع ومحمود .

عليك صلاة الله وسلامه . . . يا سيدي يا رسول الله .

الهجرة الشريفة

كانت فتحاً من الله ونصراً للمسلمين .

كانت مفتتحاً للتاريخ الإسلامي .

كان نزول القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ ، أوّل حدث وأهمّ حدث في التاريخ . وكانت الهجرة - دون جدال - ثاني أهم حدث في ذلك التاريخ . . فقد انتصر بها الإسلام واستقر المسلمون ووُضع الأساس لأول دولة إسلامية ، وانتقل بها الدين من الناحية النظرية إلى ناحية التطبيق ، فأصبح له مجتمع تنفّذ فيه تعاليمه ، روحاً ونظاماً وتشريعاً وعملاً وسلوكاً .

كانت الهجرة فتحاً من الله وانتصاراً لدينه ورسوله ، وكانت مقدمة لانتصارات أخرى عديدة وعظيمة ، حققها المسلمون في بدر ومكة وحنين وغيرها . . ولولا الهجرة ما أصبح للمسلمين تاريخ ثابت يؤرخون به ، فقبل البعثة كان العرب يؤرخون بالوقائع المشهورة : وكانت قريش - مثلاً - تؤرخ بيوم الفجار ، وحلف الفضول ، ويوم التحكيم ، وموت هشام بن المغيرة ، وحادث الفيل ، وعام الغدر ، الذي غدر فيه بنو يربوع برسل ملوك حمير ، الذين كانوا يحملون الكسوة إلى الكعبة .

وبعد البعثة وقعت أحداث جسام ، ولكن قريشاً لم تؤرّخ بها ، لأنها كانت أحداثاً إسلامية : كنزول القرآن الكريم ، والإسراء والمعراج ، وذهاب الرسول إلى الطائف ، وموت أبي طالب والسيدة خديجة ...

ولقد أرّخ المسلمون بعد الهجرة بالأحداث التي وقعت خلال السنوات التالية لها وأطلقوا على تلك السنوات أسماء خاصة بها .

فالسنة الأولى من الهجرة أطلقوا عليها (سنة الإذن) : أي الإذن بالهجرة . والسنة الثانية (سنة الأمر) : أي الأمر بالقتال ، وفيها وقعت معركة بدر ، وأُمر الناس بالصيام ، وأُمر الرسول بتحويل القبلة . والسنة الثالثة (سنة التمحيص) : وفيها وقعت معركة أحد التي محّص بها الله سبحانه وتعالى المسلمين المخلصين الصادقين . والسنة الرابعة (سنة الترفئة) : وفيها حرّمت الخمر ، وطرد بنو النضير . والسنة الخامسة سموها (سنة الزلزال) : وفيها غزوة دومة الجندل ومعارك الأحزاب وبني قريظة ، كما وقعت حادثة الإفك . والسنة السادسة أطلقوا عليها (سنة الاستئناس) : وفيها تم صلح الحديبية وبيعة الرضوان ، وفيها انتصر الروم على الفرس تحقيقاً لوعد الله في سورة الروم (الآيات ١ ـ ٦) . والسنة السابعة سموها (سنة الاستغلاب) : وفيها غزوة خيبر ، كما أن فيها قدّمت زينب بنت الحارث زوج سلام بن مشكم الشاة المسمومة إلى رسول الله ، وفيها أيضاً بعث رسول الله ﷺ بالرسائل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام . والسنة الثامنة (سنة الفتح): لفتح مكة وظهور الإسلام ، وقد وقعت فيها غزوة حنين. والسنة التاسعة (سنة البراءة): لنزول سورة

البراءة أو التوبة فيها ، وسُمّيت أيضاً (عام الوفود) : وفيها جاءت الوفود إلى رسول الله تعلن إسلامها ، وفيها وقعت غزوة تبوك . والسنة العاشرة (سنة الوداع) : وفيها تمّت حجة الوداع ، وخطبة رسول الله يوم عرفة .

* الهجرة مفتتح التاريخ الإسلامي :

بعد انتقال الرسول ﷺ إلى جوار ربه خلفه أبو بكر رضي الله عنه . فبدأ عهده بإنفاذ جيش أسامة ، ثم قتال المرتدين وتأديبهم ، كما جمع القرآن الكريم . وجاء من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فدوّن الدواوين ، وجيّش الجيوش ، وحقق بها الفتوحات الإسلامية الباهرة في الشام والعراق ومصر وفارس وغيرها .

ويروى أن عمر بن الخطاب رُفع إليه كتاب بتاريخ شعبان ، فقال لرافعه : (أي شعبان هو؟) فلم يستطع الرجل أن يحدد . ففكر عمر لحظات ثم جمع أصحاب رسول الله واستشارهم في الأمر فقالوا : يجب أن نتعرّف الحيلة في ذلك من رسوم الفرس ، وجاؤوا بالهرمزان الفارسي ـ وكان أسيراً ـ وسألوه فقال : إن لنا تاريخاً نسميه ـ ماه روز ـ أي حساب الشهور . فقاموا بتعريب الكلمة فإذا هي (مؤرّخ . أرّخ . تاريخاً) فقال عمر : « ضعوا للناس تاريخاً يتعاملون به » فقال بعضهم : اكتبوا تاريخ الروم . وقال البعض الآخر : اكتبوا تاريخ الفرس . فلم يعجبه قول هؤلاء ولا قول هؤلاء . وأخذ يفكر في الأمر . وأثناء هذا التفكير ، وصلته رسالة من أبي موسى الأشعري يقول فيها :

« إنه تأتينا منكم كتب ليس لها تاريخ فاجعلوا لنا تاريخاً نميّز به أوقاتها » هنا قال عمر لأصحاب رسول الله :

« لم لا نتخذ من الهجرة مفتتحاً للتاريخ الإسلامي ؟ إنها أظهر الأوقات وأبعدها عن الشبهة وأوثقها صلة بالإسلام والمسلمين » فوافق الجميع .

*** الإسلام قبل الهجرة وبعدها :**

ونحن نحتفي بالذكرى الخالدة للهجرة النبوية الشريفة يجدر بنا أن نستعرض حال الإسلام وأهله قبلها وبعدها ، لنعرف لها قدرها ونقدّر معناها وما تحقق للمسلمين بها . . وأول ما نبدأ به استعراضنا ؛ هو صعوبة انتشار الإسلام قبلها ، والجهد الجهيد الذي كان المسلمون يبذلونه في الوصول بالدعوة إلى قلوب الناس وعقولهم ، وسط ذلك الجو الرهيب الذي فرضته قريش ، وعمليات الظلم والبطش والتعذيب والقتل التي كانت تقوم بها .

أما بعد الهجرة فقد سرى الإسلام كما يسري النور في الظلام . وارتفعت صيحة عالية ، وانطلق المسلمون أحراراً ينشرون تعاليمه في كل مكان ، بلا خوف من بطش أو تعذيب أو قتل .

وقبلها كان الإسلام مبادىء وتعاليم وأحكاماً ، لا تجد مجتمعاً تأخذ وضعها التطبيقي في إطاره . . فالمجتمع القرشي في مكة تسيطر عليه الوثنية الطاغية ، ولا تسمح لفرد من أفراده أن يخرج على تعاليمها ، أو يطبّق حكماً غير أحكامها فكان المسلم يخفي إسلامه عن

أهله . . عن أمه وأبيه . . وأخته وأخيه . وكان المسلمون يعيشون أفراداً مستضعفين ، لا يجرؤون على إقامة شعائر دينهم ، ولا يستطيعون الاجتماع لتعلّم أصوله . وكان معظمهم يذهب إلى شعاب مكة للصلاة متخفياً . ولكن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان . . ونفوسهم واثقة من نصر الله وتأييده .

أما بعدها ؛ فقد أصبح المسلم يجهر بإسلامه ، ويفخر به . وأصبح المسلمون أسرةً واحدةً كبيرة تعيش بالإسلام وله . وأصبحت لهم مساجد يعبدون الله فيها ، ويؤدون شعائر دينهم في حرية وأمن وأمان . . بعد أن تمّ لهم التأييد والنصر من الله .

وقبلها كان الإسلام محصوراً داخل مكة ، لا ينفذ نوره إلى أي مكان آخر . . بل إن نوره داخل مكة كان محصوراً داخل بيوت قليلة من بيوتها . أما بعد الهجرة فقد تألّق نوره وراح يرسل إشعاعه إلى كل بقعة من بقاع الأرض ، في المشرق كانت أو في المغرب أو بينهما .

ومن الأمور التي عجّلت بالهجرة وجعلتها ضرورة حتمية ؛ تلك المؤامرة الخسيسة التي دبّرها طواغيت قريش لقتل رسول الله ﷺ فقد اختاروا شاباً جلداً من كل بطن من بطون قريش ، لكي يضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ، فلا تستطيع عشيرته الأخذ بثأره وترضى بالدية . . ولكن الله أنقذه من كيدهم وجعلها بداية ازدهار الإسلام وانتشاره في العالم كله .

*** أول خطبة للرسول بالمدينة :**

وما أن وصل الرسول الكريم صلوات الله عليه وأزكى سلامه إلى

المدينة ، حتى بدأ بتشييد مسجده الشريف ، وخطب في الناس ، فدعا إلى التآخي والتعاون ، والتراحم والبر ، والإحسان والإيثار ، والمحبة والطاعة . . ونهى عن الشرك والكفر والبغض ، وأن ينكث بالعهد .

*** حدث إنساني نبيل :**

ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار وقال : « تآخوا أخوين أخوين » فاندفع الأنصار يرحبون بهذه الأخوّة ، ولم يدّخروا وسعاً لتحقيق معانيها النبيلة السامية . . فتقاسموا كل شيء مع المهاجرين : المال والرزق والمعاش ؛ بل إن الواحد منهم كان يتنازل للمهاجر عن نصف بيته ، وعن إحدى زوجتيه ليتزوجها أخوه بعد انقضاء عِدّتها . ثم تعاونوا جميعاً على الجهاد في سبيل الله ، وصنعوا المعجزات باتحادهم وجميل أخوّتهم ، وعظيم تضحياتهم ، وثقتهم بنصر ربهم . .

*** ما الذي أكدته الهجرة الشريفة ؟**

الحق أنها أكّدت عدة أمور هامة ـ بل في غاية الأهمية ـ لا بد لنا أن نستوعبها ، ونستفيد منها في مواجهة تحدّيات عصرنا العديدة الخطيرة المتفاقمة .

أكّدت أن الحق هو القوة التي لا تغلب مهما طال الطريق ، وأن الباطل هو الضعف وإن دال . وأن الظلم والبطش والتعذيب والاضطهاد ؛ لا يمكن أن تنال من قوة الإيمان . . إذا تمكن في القلوب المسلمة .

أكّدت أن لا قيمة للوطن ، ولا معنى للبقاء على أرضه ، إذا فقد المواطن كرامته وحرية عقيدته ولم يعد يجد الأمان لدينه ، وأن عقيدة المسلم هي وطنه ، وأن كل مسلم أخ للمسلم لا يخذله ، ولا يظلمه ولا يسلمه .

أكّدت الأخوة الإسلامية وبيّنت أنها ميثاق بين القلوب المؤمنة وعهد لحياة إنسانية رفيعة .

أكّدت أن الإيمان يُختبر بالشدائد ، فالشدائد تملأ القلوب بالقوة وتعطي الإرادةَ عزيمةً ، فلا تهن ولا تضعف ولا تحزن ولا تيأس .

أكّدت أن الصبر والمثابرة والاتحاد والاعتصام بحبل الله أمور تصنع المعجزات ، وتحقق للمسلمين أعظم النتائج .

وبعد فهذه بعض الأمور التي أكّدتها الهجرة الشريفة . . فهل نستخلص منها ما يفيدنا في معركتنا مع طواغيت عصرنا ؟

هل تتحقق بيننا الأخوة الإسلامية كما أرادها رسول الله ﷺ ؟

وهل نتذكر أن تحقيق ذلك كله مرتبط بسنة الله في هذا الكون ، وأن هذه السنة لا تحابي أحداً ، وليس إلى تبديلها من سبيل ﴿ . . وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ .

وهل نعلم أن من أسس هذه السنة قول الله تعالى : ﴿ . . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ . . ﴾ وقوله تعالى :

---

(١) الأحزاب ، الآية ٦٢ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١١ .

﴿ .. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ .. ﴾[1] ، وقوله سبحانه : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ .. ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ .. وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[5] .

لقد آن لنا أن نفهم سنن الله في كونه ، وأن نتعامل مع هذه السنن تعاملاً كريماً ، وأن تنفعنا الذكرى ، فنصلح آخرتنا بصلاح دنيانا ، ونستجيب لله وللرسول إذا دعانا لما يحيينا .

أسأل الله تعالى أن نكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنه سبحانه قريب مجيب ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

(١) محمد ، الآية ٧ .

(٢) آل عمران ، الآية ١٦٠ .

(٣) محمد ، الآية ١١ .

(٤) محمد ، الآية ٣٨ .

(٥) محمد ، الآية ٣١ .

أم معبد تصف الرسول ﷺ . . .

ذكرت بعض كتب السيرة ، وروى بعض أصحاب الحديث أن رسول الله ﷺ مر في طريق هجرته على خيمة أم معبد الخزاعية وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبي وتجلس بفناء الخيمة فتطعم وتسقي ، فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها ؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك . وقالت : لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، وإذا القوم مرملون مسنتون . فنظر رسول الله ﷺ فإذا شاة في كسر خيمتها فقال : «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» فقالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم . قال : «فهل بها من لبن» قالت : هي أجهد من ذلك . قال تأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : إن كان بها حلب فاحلبها . فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسحها وذكر اسم الله ومسح ضرعها وذكر اسم الله ودعا بإناء لها يربض الرهط[1] فتفاجت[2] واجترت فحلب فيه ثجا حتى ملأه [وأرسله إليها] فسقاها وسقى أصحابه فشربوا عللاً بعد نهل ، حتى إذا رووا شرب آخرهم وقال : « ساقي القوم آخرهم » ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء فغادره عندها ثم ارتحلوا قال : فقلما لبث

(١) يشبع الجماعة حتى يمسكوا عن الشرب .

(٢) باعدت بين رجليها واستعدت للحلب .

أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزلى لا نقى بهن[1] مخهن قليل فلما رأى اللبن عجب وقال: من أين هذا اللبن يا أم معبد ولا حلوبة في البيت والشاء عازب ؟ فقالت : لا والله إنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت . فقال : صفيه لي فوالله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلب . فقالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءةِ ، أبلجَ[2] الوجهِ ، حسن الخلق لم تعِبْه ثجلة[3] ، ولم تُزْرِ به صعلة[4] ، وسيمٌ قسيم[5] في عينه دعَج[6] ، وفي أشفاره وَطَف[7] ، وفي صوته صَهَلٌ[8] ، وفي عنقه سطَع[9] ، وفي لحيته كثاثة ، أزجُّ أقرَنَ[10] ، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، أجملُ الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلوُ المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر[11] ، كأنَّ منطقه خرزاتُ نظم

---

(١) النقى : المخ .

(٢) مشرق الوجه: مضيئه .

(٣) ضخامة بطن .

(٤) تريد أنه ليس بناحل ولا صغير الرأس .

(٥) حسن وضيء .

(٦) سواد .

(٧) بحة وحسن .

(٨) طول .

(٩) كثرة شعر .

(١٠) حاجباه طويلان ومقوسان ومتصلان .

(١١) كلامه بينٌ وسط ليس بالقليل ولا بالكثير .

يتحدَّرن ، رَبعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر[1] ، غُصْن بين غصنين ، فهو أنضرُ الثلاثة منظراً ، وأحسنُهم قَدْراً ، له رفقاء يَحُفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود[2] ، لا عابسٌ ولا مُفنِّد[3] .

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذي ذُكر لنا من أمره ما ذكر، ولقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلنَّ إن وجدتُ إلى ذلك سبيلاً .

قال عبد الملك ـ راوي القصة : بلغني أن أم معبد هاجرت وأسلمت ولحقت برسول الله ﷺ .

قال ابن هشام : قالت : « أي عائشة رضي الله عنها » .

ثم انصرفوا ، فمكثنا ثلاث ليال وما ندري أين وجه رسول الله ﷺ ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون صوته وما يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله ربُّ النَّاسِ خيرَ جزائه ... رفيقين قالا[4] خيمتي أمِّ مَعبد

هما نـزلا بالبر وارتحلا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمد

(حديث حسن قوي أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي) .

قال ابن كثير : « قصة أم معبد مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً » .

---

(١) ربعة ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير .

(٢) عنده جماعة من أصحابه يطيعونه .

(٣) غير عابس الوجه وكلامه خال من الخرافة .

(٤) من القيلولة وهي استراحة نصف النهار .

طلع البدر علينا

طلعَ البدرُ عَلَيْنَا مِن ثَنِيَّاتِ الوَدَاعِ
وجبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لله داعِ
أيُّها المبعوثُ فِينَا جِئْتَ بالأَمْرِ المطاعِ
جِئْتَ شَرَّفْتَ المَدِينة مرحباً يا خَيْرَ داعِ

هذا نشيد يرجح أن رسول الله ﷺ قد سمعه بأذنيه الواعيتين الكريمتين عندما دخل المدينة مهاجراً ، ومن الناس من يشعر عند سماعه أنه يسمع النشيد نفسه الذي سمعه النبي ﷺ والكلمات نفسها . .

ارتفع هذا النشيد لأول مرة من حناجر المسلمين ـ المهاجرين والأنصار ـ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، عندما خرجوا يستقبلون الوافد الكريم ، وصاحبه الصدّيق ، مهلّلين مكبّرين يردّدون (الله أكبر جاء رسول الله ﷺ ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله ﷺ)[1] .

كانوا فرحين مستبشرين ، فخورين معتزين ، مبتهجين شاكرين لله عز وجل أن بارك مدينتهم وشرّف أرضهم ، بأن جعلها

---

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم بالسند المتصل عن أبي بكر رضي الله عنه .

موطن الإيواء والمنعة والنصرة ، لصاحب أعظم رسالة سماوية عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل ، ولقد صاغت كلمات هذا النشيد قلوبهم المحبة لمحمد ﷺ ، المؤمنة برسالته السامية ، فجرت تلك الكلمات على ألسنتهم ألحاناً وضاءة بالبشر معطرة بالمسك ، واستقرت في ذاكرة التاريخ الحافظة رمزاً لأروع وأبدع استقبال ، ولكي يرددها الملايين من المسلمين كلما تجددت الذكرى الخالدة للهجرة المحمدية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بصاحبها ، عليه أزكى الصلاة والسلام .

سمع رسول الله هذا النشيد حين وصل وصاحبه الصديق إلى ثنيات الوداع[1] ، ورأى المسلمين وقد اجتمعوا لاستقباله والاحتفاء به ﷺ ، متقلّدين سيوفهم مرتدين أجمل ثيابهم ، وقد علت الفرحة والزهو على وجوههم ، ورأى زعماءهم وكبار سادتهم وهم يتزاحمون على زمام الناقة تعظيماً لقدره ﷺ ، وتقديراً لمكانته وتعبيراً عن سعادتهم بمقدمه ، ورغبةً من كل واحد فيهم أن ينال شرف إقامة الرسول في بيته ، ولكن الرسول ﷺ دعا لهم بالخير ، وقال وهو يشير إلى الناقة : « خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة » .

والذين يستمعون اليوم إلى نشيد (طلع البدر علينا) ويستمتعون به ؛ يتراءى لهم أنهم يستمعون إلى النشيد نفسه الذي استمع إليه

(١) في هذا يقول الدكتور خليل ملا خاطر : إن كتب الحديث أوضحت بأنه يوجد ثنيتان للوداع الأولى أمام مسجد قباء وهي التي وردت في هذا الحديث ، عند قدوم النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة من مكة ، والثانية وهي شمال المدينة وهي المشهورة اليوم وهي الطرف الشرقي الجنوبي من جبل سلع .

الرسول الكريم ساعة وصوله إلى ثنيات الوداع .

وليت شعري كيف يستقبلونه ؟

وإلى أي مدى يكون انفعالهم به ؟

وما هو الإحساس الذي يحسونه عندما تصافح آذانهم كلماته العذبة المعبرة في بساطة عن أعظم حب وأصدق ود ؟

وما هي درجة الانتشاء والسعادة التي يصلون إليها وهم يعيشون لحظات مفعمة بجلال الإيمان وغبطة الاستماع إلى نشيد يرجح أن رسول الله ﷺ قد سمعه وهو يدخل المدينة مهاجراً ؟

لا جدال أنهم يستعيدون بهذا النشيد تلك الحياة العظيمة الكريمة ، التي عاشها رسول الله ﷺ ، وليداً ، فطفلاً رضيعاً ، فشاباً ، فرجلاً ثم نبياً كريماً يدعو إلى الدين الحق بالحكمة والموعظة الحسنة .

ولا جدال أن شريطاً بالصوت والصورة الملونة يرتفع أمام أعينهم ليعرض كل هذا .. بل يسبقُ كل هذا ، ليعرض موقف أهل مكة وهم يحتفلون بالنصر على أبرهة وفيله وجيشه ، وموقفهم وهم يستقبلون العرب الذين تسامعوا باندحار المعتدين ، فجاؤوا يهنئون قريشاً بالآية الكبرى ، التي أظهر بها الله كرامة البيت العتيق ، ورفع مكانة الذين يعيشون حوله ويعتبرون أنفسهم أهله .

وإن الشريط ليعرض قصة المولد الشريف ، حيث تظهر آمنة بنت وهب سيدة الأمهات ، وقد أشرق المكان من حولها ، وامتلأ بالأنس والجمال ، وارتفع الحجاب عن عينيها ، فإذا بها تبصر قصور

بصرى في أطراف الشام ، وقوافل الإبل تتهادى في أقاصي الصحراء ، ثم تضع وليدها فإذا به يمسّ الأرض ، يتّقيها بيديه شبه ساجد ، وقد رفع رأسه إلى السماء .

ثم تبدأ بركات الوليد تحلّ على من حوله ، فتسعد به أمه ، وتجد فيه عوضاً عن زوجها الفقيد ، وكذلك يسعد جدّه ويرى فيه العوض عن الابن الذي مات بعيداً عنه، ولا تكاد الجارية ثويبة تنقل الخبر إلى سيدها عبد العزّى (أبو لهب ؛ حتى تنسيه الفرحة بخله وشحّه ، ويصيح بالجارية (اذهبي فأنت حرة) . وعندما تأخذه حليمة السعدية لترضعه تحلّ البركة عليهاوينهمر الخير ، فتسعد هي وأهلها ، بل إن بركات الوليد تحل على ناقتها وأتانها ومراعيها في باديةِ بني سعد .

ويمتد عرض الشريط على المشاهدين، فيسعدون برؤية الرضيع وقد شب عن الطوق ، متحلّياً بأكرم الأخلاق ، وأنبل الصفات ، مترفّعاً بنفسه عن كل ما يلجأ إليه أمثاله ومن هم في سنه من لهو وعبث ، ثم يشهدونه وقد أصبح مثلاً أعلى للشباب في مكة وما جاورها ، فهو الصادق الأمين ، وهو العفيف الشريف ، وهو التاجر الذي لا يلجأ إلى الغش أو الخداع ، ولا يقبل ربحاً حراماً .

ويكرمه الله بالزواج من أفضل نساء قريش وأطهرهن وأكثرهن مالاً . فيتاجر ويربح حلالاً طيباً يضاعف به أموالها ، ثم تختاره قريش ليكون حكماً في النزاع حول وضع الحجر الأسود في مكانه من البناء الجديد للكعبة ، ويخضع جميع السادة لرأيه وينفذون حكمه ، وهم سعداء به أشد السعادة معترفون بفضله ، مقرون بحكمته وحسن

مشورته ، فلا يأخذه الغرور أو يعرف الكبر طريقاً إلى قلبه ، وإنما يظل على تواضعه الكريم وحبه للفقراء والمساكين وعطفه عليهم ، ولا يفتأ يردد قولته المشهورة : « إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد »[1] .

وهو لا ينسى أحداً من ضعفاء قومه ، فهذه بركة الجارية التي ورثها عن أبيه، إنه يكرمها ويبالغ في إكرامها إلى درجة تجعله ﷺ يبرها ويعاملها كما يعامل الرجل الكريم أمه .

ويستمر الشريط في عرض أحداث تلك الحياة الفاضلة ، النقية التقية ، الطاهرة الزكية ، حتى بعثته ﷺ فيراه المشاهدون وقد نبيء وأخذ يدعو الناس إلى العبادة الحقة ، عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله غيره ولا شريك له ولا ولد ، ونبذ ما هم عليه من عبادات ضالّة مضلّة وجهالات ضارّة مضرّة ، فتؤمن به خديجة رضي الله عنها ، ويؤمن علي كرّم الله وجهه ، والصديق ، وبعض من سادة قريش ، والمئات من الضعاف والعبيد والأرقاء . ويكفر بدعوته معظم السادة من قريش ورؤوس أحيائها ، ويعادونه ويؤذونه في نفسه وأهله وأتباعه ، وهو صابر مثابر لا يملّ ولا يضعف ولا يتراجع ، بل يحتمل ويحتمل على أمل أن يشرح الله قلوبهم للإسلام ، ويحاول طواغيت قريش شراءه بالمال والجاه والسلطان ، ليترك هذه الدعوة فيرفض كل ألوان الإغراء ، ويظل يناضل ويكافح بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة .

وعندما يبلغ إيذاء قريش لأتباعه الضعفاء القمّة ينصحهم

(1) كان هذا بعد الهجرة .

بالهجرة إلى الحبشة ، فيزداد حقد طواغيت قريش ، ويتضاعف سخطهم ، ويصممون على التخلص منه بفكرة يعرضها أبو جهل ، وهي أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً جليداً نسيباً ، يضربونه ضربة رجل واحد بسيوف مشحوذة ، فيتفرق دمه بين القبائل وينتهي أمره ، وعلى الفور نفذت قريش الفكرة ، وأحاط أولئك الشباب ببيت رسول الله ﷺ ، انتظاراً لخروجه عند الفجر للصلاة ، ولكن الله سبحانه وتعالى أحاطه علماً بما بيَّتوا ، وعرَّفه بكيدهم وأمره بالهجرة ، فطلب ﷺ من علي رضي الله عنه أن ينام في فراشه ويلتحف بغطائه ، ثم خرج وهو يقرأ الآيات ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يس : ١-٩) فأخذ الله بأبصارهم جميعاً ، ولم يروه أو يشعروا بخروجه ، فوضع التراب على رؤوسهم ، ومضى في طريقه آمناً بفضل الله تعالى ورعايته .

ويذهب النبي ﷺ مع صاحبه إلى الغار ويختبئان حتى يخف عنهما الطلب ويتبع المشركون الأثر ، ويقفون على باب الغار ، ويقول أبو بكر رضي الله عنه لو نظر أحدهم إلى أسفل قدميه لرآنا ، فيطمئنه ﷺ قائلاً : لا تحزن إن الله معنا ثم يخرجان . . ويسيران في جوف الصحراء مع الدليل ، فيراهم سراقة بن مالك ، وكان قد خرج يطلب رسول الله ، طمعاً في الحصول على مائة الناقة ، التي جعلتها قريش

مكافأة لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً .

ويجتهد سراقة ليلحق بالركب ، ولكن الله يحول بينه وبين ذلك ، إذ يخرّ به جواده . وتسوخ قوائمه في الرمال مرتين ، وفي الثالثة توشك الرمال أن تبتلعه وجواده . فيعلم أن محمداً رسول الله حقاً ، وأنه ممنوع بأمر من الله سبحانه وتعالى . قال سراقة : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني ، وأنه ظاهر ، فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقة بن جعشم ، انظروني أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه ، قال ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : قل له : وما تبتغي منا؟ قال: قلت تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك. قال: اكتب له يا أبا بكر .

قال : فكتب لي كتاباً في عظم . . ثم ألقاه إلي فأخذته فجعلته في كنانتي ثم رجعت ، فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ ، وفرغ من حنين والطائف ، خرجت ومعي الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة ، قال : فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار ، قال : فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون : إليك إليك ماذا تريد؟ قال: فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، قال: فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك ، أنا سراقة بن جعشم . قال : فقال رسول الله ﷺ : يوم وفاء وبر ، ادنه . قال : فدنوت منه فأسلمت . ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه ، فما أذكره إلا أني قلت : يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضي وقد ملأتها لإبلي ، هل من أجر في أن أسقيها ؟ قال : نعم . في كل ذات كبد حرى أجر . قال : فرجعت إلى قومي . . .

ويصل الرسول الكريم إلى ثنيات الوداع . . ويستقبله الأنصار والمهاجرون هذا الاستقبال الرائع بل المذهل ، وينشدون هذا النشيد الذي خلد مع الزمن واستقر في قلب كل مسلم وفي ذاكرته ، يستعيده كلما أهلّت الذكرى ، ويستعيد به سيرة المصطفى ﷺ .

حقاً لقد كان محمد بدراً استنارت به الدنيا يوم مولده ، وكان بدراً يوم مبعثه ، إذ جاء الإنسانيةَ بالدين الحق الذي أخرجها من دياجير الشرك والضلال إلى نور الإسلام . وكان بدراً في قلوب المسلمين جميعاً ، يوم عاد بجيشه من تبوك سليماً بعد أن أرجف المرجفون وتقوّل المغرضون . وكان بدراً يوم الفتح الأبلج ، حين دخل مكة ، في عشرة آلاف من أصحابه ، وكان فتحاً كما أراده الله تعالى وبشره به يوم صلح الحديبية ، ولسوف يظل بدراً في قلوبنا جميعاً ، نستشعر بنوره سعادة روحية لا حدود لها . ونستنير بأقواله وأفعاله إلى ما شاء الله .

بين يدي رسول الله ﷺ

السلام عليك يا رسول الله . .
السلام عليك يا حبيب الله . .
نشهد أنك قد أدّيْتَ الأمانة . . وبَلَّغْتَ الرسالة . . ونصحتَ الأمّةَ . . وجاهدتَ في سبيل الله حتى أتاك اليقين . .

ونشهد الله على أننا نحبك ـ يا سيدي يا رسول الله ـ ونحب من يحبك . . عسى أن يحشرنا الله بفضله وعفوه . . ثم بذخر هذه المحبة في معيّتك . . ويوردَنا حوضَك . . نشرب منه شربة هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبداً .

ولا شك أنها سعادة كبري وفرحة عظمى . . نحسّ بها ونحن نسترجع جوانب من السيرةالنبوية العطرة . . نطيب بها نفوسنا في مواسم الذكريات . . ونقوّي بها إيماننا . . ونشحذ بها هِمَمنا . . ونملأ بها عواطفَنا . . وفي غير تبديل أو ابتداع أو تضليل . . وإنما هي متابعة وترديد لصدى ذكريات ملأت الكون بهجةً وسروراً . . بصورة ما تزال فيها هذه الأمة تقتبس شعلة الإيمان لتواصل بها إنارة الطريق أمام أجيال أمة محمد ﷺ . . جيلاً بعد جيل . . يتوارثون حب محمد ﷺ وآل بيته وأصحابه . . فيكتمل بذلك إيمانهم . . ويكونون معه ﷺ في جنات النعيم .

وهذا هو يقول للأعرابي الذي جاء إليه يسأله : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال عليه أزكى الصلاة والتسليم : « وماذا أعددت لها؟» قال الأعرابي : ما أعددتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيام ولا صدقة ؛ إلا أنني أحب الله ورسوله . فجاء جوابه عليه أفضل الصلاة والتسليم شافياً وافياً يعمق الحب له ، ويدعو إليه ، ويؤكد الانتفاع به . فقال للأعرابي ، في كلمة من جوامع الكلم : « المرء مع مَن أحبّ »[1] .

وقد علّق راوي الحديث ، أنس بن مالك رضي الله عنه ، على هذا بقوله : « ما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام كفرحهم بذلك » .

وقد أحبوه وأيّدوه ، وعلمونا معنى محبة رسول الله . . إنهم رجال صدقوا فيما عاهدوا الله عليه . . وفي محبتهم لرسول الله . . وفي الإيمان به . . وقالوا : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ (آل عمران : ١٩٣) وبذلوا نفوسهم رخيصة في سبيل الدعوة . . وخضعوا . . وتواضعوا . . وخفضوا أصواتهم . . وبذلوا أرواحهم من أجل رسول الله . . وصدرت عنهم عجائب الإيمان بالغيب . . والحب لرسول الله ، فافتدوه بأرواحهم ، وآثروا الآجلة على العاجلة ، والهداية على الجباية .

وها نحن تظللنا ذكرى عطرة ، في الشهر الكريم ، شهر ربيع الأول الذي ولد فيه ﷺ على أغلب الروايات . . وخرج فيه من مكة إلى غار بجبل ثور أسفل مكة مع الصديق : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة : ٤٠) ثم

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد .

في هذا الشهر أيضاً دخل المدينة ﷺ مع أبي بكر الصديق مهاجراً إليها ، امتثالاً لأمر الله الذي أخرجه من أحب البقاع إليه . .

وهي مناسبة طيبة . . نسترجع فيها عبير الذكريات العطرة ، ونتدارس سيرة المصطفى ﷺ ، على أسس من كتاب الله وسنة رسوله .

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه النسائي : أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : « ما أجلسكم ؟ » قالوا : جلسنا ندعو الله ونحمده على ما هدانا لدينه ، وما منَّ علينا بك قال : « آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ » قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : « أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم وإنما أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة» . وقال عمر بن عبد العزيز :سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سنناً ، الأخذ بها تصديق بكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله . ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها . ومن اقتدى بها فهو مهتد . ومن انتصر بها فهو منصور . ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاّه الله ما تولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً . . ونتدبر قول الله عز وجل في كتابه العزيز : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء : ٦٤) .

وقوله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (النساء : ٨٠) .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران : ٣١) .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

ننظر في هذه الآيات نستشفُّ منها أمر الله سبحانه وتعالى للمسلمين بطاعته ومحبته . . وإيضاح مكانته ﷺ . . وما يجب أن تكون عليه في نفوس المسلمين . . ثم ننظر في حديثه ﷺ يخاطب سيدنا عمر بن الخطاب يوم قال له عمر رضي الله تعالى عنه : إنك يا رسول الله أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي . قال : « لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك » . فقال عمر رضي الله عنه : فإنك الآن والله أحب إليَّ من نفسي . قال : « الآن يا عمر » .

هكذا في جلاء ووضوح حدد رسول الله ﷺ كمال الإيمان بمحبته .

ثم ننظر في حديث رسول الله ﷺ يحدد لنا منهج هذا الحب ، ويحذِّر من مغبة الشرك فيه :

« لا تُطروني كما أطْرَتِ النصارى عيسى ابن مريم » .

وقد أطْرَتِ النصارى عيسى ابن مريم بصورة جعلته شريكاً لله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ فقالوا : إنه ابن الله . . وقالوا : إنه ثالث ثلاثة . . وقالت طائفة منهم : «إن الله هو المسيح بن مريم » ، فكانت محبتهم محبة خالطها شرك ، وأفسدها ابتداع أدخلهم في تلك المتاهة وذلك الضلال . .

وقد أطْرَوْه بما لم يأمرهم به . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً ؛ وسيفضح الله سبحانه وتعالى كذبهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة كما جاء . . .

جاء ذلك في الكتاب العزيز : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ[1] يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (المائدة : ١١٦)

ولهذا . . جاء حديث رسول الله ﷺ يوضِّح أبعاد هذا الإطراء ومخاطره . . ويحذر مما فيه من شرك . فربط الصورة بكل وضوح بموضوع إطراء النصارى لعيسى عليه السلام .

أما محبته ﷺ . . وتعظيمه . . وإجلاله واتباعه . . فقد حثنا على ذلك كله ، ودلّنا على السبيل ، وكان ﷺ أخشىٰ الناس لله ، وأتقاهم لله فهو يقول : « . . . **إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له** . . »[2] .

وكان من دعائه ﷺ : «اللهم إني أسألك حبَّك، والعمل الذي يبلغني حبك، وحبَّ من يحبّك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي والماء البارد»[3]

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وإذ قال الله ﴾ بصيغة الماضي يعني وإذ يقول أي يوم القيامة ؛ عبر عنه بالماضي لضمان تحققه ؛ مثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ يعني سيأتي أمر الله بدليل قوله تعالى فلا تستعجلوه ، فإن ما أتى ، وانتهى ، لا يستعجل ، إنما يُستعجل ما لم يأت بعد .

كما جاء عكس ذلك في القرآن الكريم أي التعبير عن الماضي بصيغة المضارع مثل قوله تعالى ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ـ المعنى قال له كن فكان ، ومثل قوله تعالى : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول ﴾ : يعني حتى قال الرسول .

والأمثلة كثيرة من القرآن الكريم ، ومن لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه الترمذي وأبو نعيم في الحلية عن أبي الدرداء .

وحتى تصبح محبتنا له ﷺ إيجابية فعالة تؤتي ثمارها الطيبة ؛ فإن من الواجب ربطها بالمنهج : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٣١) . وأن نتخذه قدوة : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب : ٢١) . وهذا رسول الله ﷺ يقول : « .. عليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة »[١] ، ويقول ﷺ : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى . قيل : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى »[٢] وأخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه : « من رغب عن سنتي فليس مني » .

هذه هي سنة رسول الله ﷺ أو طريقته أو المنهج الذي ينبغي للمسلمين جميعاً أن يتمسكوا به بعد آيات الذكر الحكيم .

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الحشر : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الحشر : ٧) .

ويقول سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

* * *

(١) رواه أبو داود والترمذي .

(٢) رواه البخاري .

سباق الأحبة

كانت محبة رسول الله ﷺ المنزلة التي يتسابق المسلمون إليها ويتنافسون عليها ويعملون جاهدين لبلوغها . وكيف لا وهو الذي وصفه ربه العليم الخبير بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) وأرسله رحمة للعالمين ، ووصف حرصه على مصالح أمته ورحمته بها وشفقته عليها فقال سبحانه : ﴿ .. عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] وأمرنا بالصلاة والسلام عليه ، ويبدأ ذلك بنفسه وثنى بملائكة قدسه فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[٣] ، ودعانا إلى توقيره وتعظيمه فقال عز وجل : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٤] .

وعلمنا الأدب معه ، وما ينبغي له من التوقير والتبجيل والتعظيم فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (الحجرات : ١) .

وقال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات : ٢) .

(١) التوبة ، الآية ١٢٨ .

(٢) الأحزاب ، الآية ٥٦

(٣) الأعراف ، الآية ١٥٧ .

وقال سبحانه : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (النور : ٦٣) .

قال ابن عباس رضي الله عنه : تقدِّرونه وتجلُّونه ، وقال المبرد : تقدِّرونه وتبالغون في تعظيمه . وروي بعد نزول هذه الآيات أن أبا بكر رضي الله عنه قال : والله يا رسول الله لا أكلِّمك بعدها إلا كأخي السرار . وأن عمر رضي الله عنه إذا حدَّثه حدَّثه كأخي السرار . وروي عن عمرو بن العاص أنه قال : « ما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له . ولو سُئلت أن أصِفه ما أطقتُ لأني لم أكن أملأ عيني منه »(١) .

وأخرج الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وهم جلوس وفيهم أبو بكر وعمر ، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر ، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ويبتسم لهما ، وكان غض أبصارهم عنه لما ألقى الله عليه من جلال النبوة ، وعظيم الهيبة !

قال أبو إبراهيم التجيبي : واجب على كل مؤمن متى ذكره أو ذُكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ من هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه .

وناظر أمير المؤمنين أبو جعفر الإمامَ مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك : « يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدَّب قوماً فقال : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ (الحجرات : ٢) ومدح قوماً فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ

(١) رواه مسلم .

رَسُولِ اللَّهِ ﴾ (الحجرات : ٣) ولام قوماً فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ . . ﴾ الآية ، (الحجرات : ٤) ، وإن حُرمته ميتاً كحُرمته حياً . فاستكان لها أبو جعفر .

قال مصعب بن عبد الله : كان مالك إذا ذُكر النبي ﷺ يتغير لونه وينتحب حتى يصعب ذلك على جلسائه . فقيل له يوماً في ذلك ، فقال : « لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون ، لقد كنت أرى محمد بن المنكدر ـ وكان سيد القراء ـ لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي ، حتى نرحمه . وقد كنت أرى جعفر بن محمد ـ وكان كثير الدعاء والتبسم ـ فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ اصفرَّ ، وما رأيته يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة » .

ولقد جاء وصف رسول الله ﷺ وصفته في الكتب السماوية كالتالي : أخرج أحمد عن عطاء بن يسار قال : « لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت : أخبرني عن صفات رسول الله ﷺ في التوراة ، فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً وحرزاً للأميِّين(١) أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيموا الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، يفتح به أعيناً عمياء ، وآذاناً صمًّا ، وقلوباً غلفاً » .

وأخرج البخاري نحوه عن عبد الله والبيهقي عن ابن سلام ، وفي

(١) حصناً للعرب .

رواية : حتى يقيم به الملة العوجاء . وأخرجه ابن إسحاق عن كعب الأحبار بمعناه . وأخرجه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها مختصراً .

وذكر وهب بن منبه أن الله تعالى أوحى إلى داود في الزبور : يا داود .. إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد ، صادقاً سيداً لا أغضب عليه ولا يغضبني أبداً ، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر ، وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء وفرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء - إلى أن قال - يا داود .. إني فضَّلت محمداً وأمّته على الأمم كلها .

وعن سعيد بن أبي هلال أن عبد الله بن عمرو قال لكعب :

أخبرني عن صفة محمد ﷺ وأمته ، قال أجدهم في كتاب الله تعالى : « إن أحمد وأمته حمادون يحمدون الله عز وجل على كل خير وشر ، يكبرون الله على كل شرف[1] ، ويسبحون الله في كل منزل ، نداؤهم في جو السماء ، لهم دويّ في صلاتهم كدويّ النحل على الصخر ، يصفّون في الصلاة كصفوف الملائكة ، ويصفّون في القتال كصفوفهم في الصلاة .

إذا غزوا في سبيل الله كانت الملائكة بين أيديهم ومن خلفهم برماح شداد ، إذا حضروا الصف في سبيل الله كان الله عليهم مُظلاً - وأشار بيده - كما تظل النسور على وكورها ولا يتأخرون زحفاً أبداً » .

وأخرجه أيضاً بإسناد آخر عن كعب بنحوه وفيه :

(١) المرتفع من الأرض .

« وأمته الحمادون يحمدون الله على كل حال ، ويكبرونه على كل شرف ، رعاة الشمس[1] ، يصلون الصلوات الخمس لوقتهن ولو على كناسة[2] ، يأتزرون على أوساطهم ويوضئون أطرافهم » وأخرجه كعب أيضاً بإسناد آخر مطوَّلاً[3] .

وأخرج يعقوب بن سفيان الفسوي الحافظ عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سألت خالي هند بن أبي هالة - وكان وصّافاً - عن حِلية رسول الله ﷺ ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به ، فقال :

« كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع (ما بين الطويل والقصير على حد سواء) ، وأقصر من المشذب (الطويل البائن الطول مع نقص في لحمه) ، عظيم الهامة : (الهامة : الرأس) ، رَجْل الشعر (بكسر الجيم وسكونها ، أي كانت بين الجعودة والسبوطة ، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ما فيه تكسر قليل) إذا تفرقت عقيصته (العقيصة : الشعر المعقوص وهو نحو من المضفور ، وأصل العقص اللي وإدخال أطراف الشعر في أصوله . وأقول : الصحيح أن العبارة هي « إن انفرقت عقيقته » أما كلمة عقيصة فهي تصحيف عن عقيقته والرسول عليه السلام لم يكن له عقيصة ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة

(١) يراقبون الشمس من أجل الصلاة والإفطار .
(٢) الصخرة الملساء .
(٣) العلامة محمد يوسف الكاندهلوي « حياة الصحابة »

أذنيه ذا وفرة (الصحيح : إذا هو وفّره) .

أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزجّ الحواجب[1] . سوابغ في غير قرن ، بينهما عرق يدرّه الغضب ، أقنى العرنين ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله ؛ أشمّ ، كثّ اللحية ، أدعج ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمية ، في صفاء الفضة .

معتدل الخلق ، بادناً متماسكاً ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبّة والسرّة بشعر يجري كالخط ، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، سبط القصب ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، خُمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء ، إذا زال زال قلعاً ، يخطو تكفئاً ، ويمشي هوناً ، ذريع المشية إذا مشى ، كأنما ينحطّ من صبب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جلّ نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام .

قلت : صف لي منطقه ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، لا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، يتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل لا فضول ، ليس بالجافي ولا المهين ، يعظم

(١) تقوسهما مع طولها ، أو رقتهما مع طولها.

النعمة وإن دقّت لا يذم منها شيئاً ولا يمدحه ، ولا يقوم لغضبه ـ إذا تُعرِّض للحق ـ شيء حتى ينتصر له ـ وفي رواية ـ لا تغضبه الدنيا وما كان لها ، فإذا تُعرِّض للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدّث يصل بها يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه ، جُلّ ضحكه التبسم ، ويفترّ عن مثل حبّ الغمام . قال الحسن : فكتمتها الحسين بن علي زماناً ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه فسأله عما سألته عنه ، ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يدع منه شيئاً .

قال الحسين :

سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ فقال : « كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك ، وكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءاً لله وجزءاً لأهله وجزءاً لنفسه ، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فرد ذلك على العامة والخاصة لا يدّخر عنهم شيئاً . وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقَسمه على قدر فضلهم في الدين ، فمنهم ذو الحاجة ومنهم الحاجتين ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ويقول : ليبلّغ الشاهدُ الغائبَ وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته ، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبّت الله قدميه يوم القيامة ، لا يذكر عنده إلا ذلك ، ولا يقبل من أحد غيره يدخلون عليه روّاداً » جمع رائد ، وهو الذي يرتاد الخير للناس »

ولا يفترقون إلا عن ذواق ويخرجون أدلة (يعني على الخير) .

٢ ـ قال : وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟

فقال : « كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا بما يعنيه ، ويؤلِّفهم ولا ينفِّرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويولّيه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره (بشاشة الوجه) ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسِّن الحسن ويقوّيه ويقبِّح القبيح ويوهِّيه (أي يجعله ضعيفاً واهياً بالمنع والزجر عنه) ، معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، ولا يقصر عن الحق ولا يجوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمّهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة (أي معاونة) .

٣ ـ قال : فسألته عن مجلسه كيف كان ؟

فقال : « وكان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذِكْر ، ويوطن الأماكن وينهى عن إيطانها « أي اختصاص كل واحد بمجلس معين في المسجد أو غيره » ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرمُ عليه منه ، من جالسه أو قاومه (وقف معه قائماً) في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سألهُ حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس منه بسطُه وخلقُه فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تُؤبن (أي لا تعاب) فيه الحرم ،

ولا تنثى (لا تشاع ولا تذاع) فلتاته (أي زلاته وهفواته ، والمراد فلتات فيه ، فالنفي للفلتات نفسها لا لوصفها من الإذاعة) ، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقّرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب » .

٤ ـ قال : فسألته عن سيرته في جلسائه ﷺ ؟

فقال : « كان ﷺ دائم البِشر ، سهل الخُلُق ، ليِّن الجانب ، ليس بفظّ (أي سيء الخلق) ولا غليظ ، ولا سخّاب (أي صيّاح) ولا فحّاش ، ولا عيّاب ، ولا مزّاح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤيس منه راجيَه ولا يخيب فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث : المراء (الجدال) ، والإكثار ، وما لا يعنيه . وترك الناس من ثلاث : كان لا يذمّ أحداً ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه . إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا تكلم سكتوا وإذا سكت تكلموا ، ولا يتنازعون عنده (أي لا يتكلمون سوية وتمام العبارة كما في الشمائل . من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أوّلهم ، ومعنى العبارة الأخيرة أي أن النبي كان يستمع لمن حضر أوّلاً ثم لمن وليه وهكذا » يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجّب مما يتعجّبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقة ومسألته حتى إن كان أصحابه ليستحلبونه (كذا في البداية ، وفي الكنز: ليستجلبونهم في المنطق ويقول: إذا رأيتم صاحب حاجة فأرفدوه (أي أعينوه، وفي الكنز: فأرشدوه) ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء، ولا يقطع على محدِّثه حتى يجور (يميل عن الحق) فيقطعه

بنهي أو قيام » .

٥ ـ قال : فسألته كيف كان سكوته ﷺ ؟

قال : « كان سكوته على أربع : الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكّر . فأما تقديره ففي تسويته النظر والاستماع بين الناس ، وأما تذكّره ـ أو قال تفكره ـ ففيما يبقى ويفنى ، وجمع له ﷺ الحلم والصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه ، وجمع له الحذر في أربع : أخذه بالحسنى والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة ﷺ . وقد روى هذا الحديثَ بطوله الترمذي في الشمائل عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سألت خالي ، فذكره ، وفيه حديثه عن أخيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب ، وقد رواه البيهقي في الدلائل عن الحاكم بإسناده عن الحسن ، قال : سألت خالي هند بن أبي هالة فذكره ، كذا ذكر الحافظ ابن كثير في البداية قلت : وساق إسناد هذا الحديث الحاكم في المستدرك ثم قال : فذكر الحديث بطوله . وأخرجه أيضاً الروياني والطبراني وابن عساكر كما في كنز العمال والبغوي كما في الإصابة ، وفيما ذكر في الكنز في آخره : وجمع له الحذر في أربع : أخذه بالحسنى ليُقتدى به ، وترك القبيح ليُتناهى عنه ، واجتهاده الرأي فيما أصلح أمته ، والقيام فيما جمع لهم الدنيا والآخرة وهكذا ذكره في المجمع عن الطبراني[1] .

(١) العلامة محمد يوسف الكاندهلوي « حياة الصحابة »

الكامل يدعو إلى الكمال

وكيف لا نحب رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله وهو المثل الأعلى للتكامل الإنساني والسمو البشري ، وقد أدَّبه ربه فأحسن تأديبه ، وأرسله إلى الناس كافة نبياً خاتماً : ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (آل عمران : ١٦٤) .

إن دنيانا هذه لم تر في تاريخها الطويل الموغل في جوف الزمن بشراً اجتمعت فيه الصفات التي اجتمعت لمحمد بن عبد الله ﷺ . فقد كان طفلاً لكن ليس كمثله طفل ، وصبياً ليس كمثله صبي ، وشاباً ليس كمثله شاب ، ونبياً ليس كمثله نبي . . لقد خلقه الله نسيجاً وحده ، وجعل خُلُقَه القرآن ، وبعثه بدعوة الحق ليدعو الإنسانية إلى الكمال .

فإذا ذكرنا العقل فإننا نجده ناضجاً مكتملاً مستنيراً ، يتفكر ويتأمل ويناقش نفسه ويحاورها باحثاً عن حقيقة الوجود . ونجده وقد اهتدى إليها مبكراً ، يرفض ما عليه قومه من شرك وكفر وضلال ، فلا يسجد لصنم ، ولا يحتفل بوثن ، ولا يقرب الخمر ، ولا يلعب الميسر ، ولا يفعل ما يفعله أقرانه من أبناء قريش . . إنه يعتزل الناس مع عقله ، ويقضي أوقاته متسائلاً عن هذا الكون . . وعن الذي أبدعه وأتقنه :

ولقد أحسَّت قريش بما عليه الفتى من رجاحة العقل وسلامة الحكمة ، فكانت تلجأ إليه كلما استفحلت مشاكلها واستحالت عليها الحلول .

وكلنا يعرف قصة التحكيم وكيف ارتضته قريش بكل بطونها بعد أن اتسع الخلاف بين العشائر ولعق بعضها الدم واستعد للقتال .

كان هذا قبل البعثة . أما بعدها فقد ظهرت قوة عقله ﷺ وعظمة

قدراته في تدبير أمور الدعوة وتوجيهها التوجيه السليم ، الذي كفل لها الانتشار والازدهار والانتصار على كل العقبات والتحديات والمواجهات القتالية ، التي ظهرت من خلال إرسائه لقواعد الدعوة الإسلامية وتثبيت دعائمها .

*** كأن منطقة خرزات نظم ينحدرن :**

وإذا ذكرنا الفصاحة والبلاغة وحلاوة المنطق ؛ يحضرنا على الفور وصف أم معبد التي تقول : « .. إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هزر ، وكأن منطقه خرزات نظم ينحدرن » .

ويحضرنا أيضاً وصف الجاحظ لحديثه : (.. الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجلّ عن الصفة ونزّه عن التكلف . استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصود في موضع القصد ، وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي . فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة . ولم يتكلم إلا بكلام وصف بالعصمة . وشعر بالتأييد ويسّر بالتوفيق ، وهذا الكلام كلام الذي ألقى الله تعالى المحبة عليه ، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام . وهو مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته .. لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب .. بل يبذأ الخطب الطوال بالكلام القصير ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما

يعرفه الخصم ولا يحتج إلا بالصدق . ولا يطلب الفلج إلا بالحق ولا يعجل ولا يرهب ولا يحصر . . ثم لم يُسمع بكلام قط أتم نفعاً ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح في معناه ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ » .

- الله أكبر . .
- هذا هو الجوهر . .
- نثره محمد بن عبد الله على الكون ليبهر . .

ولقد بُهر القاضي عياض به كما بُهر غيره من علماء اللغة وأساتذتها الفطاحل فكتب يقول :

« أما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل سلامة طبع وبراعة نزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف . أوتي جوامع الكلم ، وخُص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في نزع بلاغتها » .

ويتتبع القاضي عياض الكلام المعتاد لرسول الله ﷺ ثم يكتب قائلاً :

« .. ومنه ما لا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة كقوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم .. وهم يد على من سواهم » وقوله : « الناس كأسنان المشط » « لا خير في صحبة من لا يرى ما ترى له » . « الناس معادن » « وما هلك امرؤ عرف قدره»

« المستشار مؤتمن » « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم » . وقوله ﷺ : « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » ، وقوله : « إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً .. الموطئون أكنافاً الذين يألفون . . . » ، وقوله : « ولعله كان لا يتكلم بما لا يعنيه ولا يبخل بما لا يغنيه » وقوله : « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً » ونهيه عن « قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ، ومنع وهات وعقوق الأمهات ووأد البنات » وقوله عليه أزكى الصلاة والسلام : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » وقوله : « خير الأمور أوسطها » وقوله : « أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما » وقوله : « الظلم ظلمات يوم القيامة » ، وقوله في بعض دعائه : « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلمّ بها شعثي ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكّي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها ألفتي ، وتعصمني بها من كل سوء .. اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » .

كذلك قد تتبع أبو زهرة كلامه المعتاد ﷺ مأخوذاً مبهوراً بخصائصه البلاغية التي لا تعلو على العقول الفطرية . فهي تدركها في أيسر كلفة مع جلال المعنى وعمقه وقوة نفوذه في النفوس . ثم إن الخاصة يجدون فيه علم ما لم يعلموا .

ثم يطلب منا أبو زهرة أن نتأمل بعض هذه الأقوال مع ذكر المناسبات التي قيلت فيها فيقول : « انظر قوله ﷺ في بيان وحدة الأمة

الإسلامية ، وما ينبغي من تعاونها : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً » وقوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادّهم وتَراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وانظر إلى قوله ﷺ في المعاهدات التي تعاهد والنفوس على أحقادها لم تستل منها سخائمها : « هدنة على دخن » .

وانظر إلى قوله في فضل العمل ، وأن يكفي كل إنسان مؤونة نفسه ، ويستعد لمعونة غيره : « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقوله في أمر لا يُختلف فيه : « ولا ينتطح فيه عنزان » وقوله عليه الصلاة والسلام في توزيع خيرات الله تعالى في أرض الله ، كلّ أرض بحصتها من الرزق : « كل أرض بسمائها » وقوله في الرفق بالنساء وقد سار السائق يسوق رحالهن بعنف : « رويدك .. رفقاً بالقوارير » .

ويقرر أبو زهرة ما قرره القاضي عياض وكل أساتذة اللغة وجهابذتها من قبل ؛ أن هذه التراكيب والتعابير جديدة على العربية ، لم يسبق إليها سابق . وهي واضحة المعنى ، بيِّنة القصد ، لا تعلو على العامة ، ولا تجفو عنها آذان الخاصة[1] .

(١) الإمام الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (خاتم النبيين) .

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

خلق الله سبحانه وتعالى محمداً كاملاً ، وجعله مثلاً أعلى لمكارم الأخلاق وأدَّبه وأحسن تأديبه وجعله رحمة للعالمين . فكان الرحمة المهداة إلى الناس جميعاً والهدى والنور . . يدعوهم إلى العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، والحلم والتواضع والجود والحياء ، والصدق والأمانة ، والرفق بالضعفاء والعفو والعفة ، والوفاء بالوعد ورعاية العهد . . ويعلّمهم ضبط النفس وكظم الغيظ ، والامتناع عن الغلظة والفظاظة ، وتطهير القلب من الأحقاد . . والإعراض عن الجاهلية وترك المهاترة والمجادلة .

وكان ﷺ مشرق الوجه ، دائم البشر ، لين الجانب ، ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مزّاح . . ولنسمع قول الله سبحانه وتعالى في آل عمران : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

ولقد كسب رسول الله حب الناس بأخلاقه ، واجتذب قلوبهم بنبل تصرفاته ، ونقل أعدى أعدائه من دياجير الكفر وطغيانه إلى رحاب الإيمان الفسيحة بتسامحه وكريم أفعاله . . بل لقد جعلهم دعاة للإسلام : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت : ٣٤) .

فاجأ غورثُ بن الحارث النبيَّ ﷺ نائماً تحت شجرة وقت القيلولة والناس كلهم قائلون . . ولم ينتبه النبي إلا والسيف مصلت على رأسه في يد غورث وهو يقول : « من يمنعك مني ؟ » فقال ﷺ : « الله »

فسقط السيف من يد غورث وتسمَّر في مكـانه . . فالتقط الرسول الكريم السيف وقال : « من يمنعك مني ؟ » فقال غورث : « كن خير آخـذ يا ابن عبد الله » فتركه ﷺ وعفا عنه . . فدنا قلب غورث بعد نفور ، ولان بعد جحود ، وصار داعية لرسول الله بعد أن كان يريد الفتك به وانطلق إلى قومه يقول : « جئتكم من عند خير خلق الله » .

والناس جميعاً عند رسول الله كانوا سواسية كأسنان المشط ، فلا فضـل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . والأوامر الربانية تنفّذ على الجميع ، فلا مجاملة ولا محابـاة ولا تحيّز عنده لقريب أو عظيم . . وليس أدلّ على ذلك من موقفه يوم سرقت فاطمة المخزومية ـ ومكانتها ومكـانة عشيرته يوم ذاك في مقدمة العشائر ـ وكبر على قريش أن يقطع رسول الله ﷺ يدها ، وطلبوا من أسامة بن زيد أن يتشفّع لها عنده فلا يقيم عليها الحدّ . . .

فتأثّر عليه السلام وقال مستنكراً : « أتشفع في حد من حدود الله ؟! . . » ثم خرج إلى النـاس فخـطبهم قائلاً : « ما بال أناس يتشفعون في حدّ من حدود الله . . إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف قطعوه . . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ينفذ قول الله سبحـانه وتعـالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف : ١٩٩) وقوله جل وجلاله : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت : ٣٤) . ولقد طبق هذا القول الكريم يوم فتح

مكة أعظم تطبيق ، عندما قال للذين آذوه وحاربوه من قريش : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . .

يروي أنس بن مالك يقول : « كنت أمشي مع رسول الله وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذاً شديداً ، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ فإذا قد أثّرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته . . ثم قال الأعرابي : يا محمد مُرْ لي من مال الله تعالى الذي عندك . فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء »[1] .

ـ لك الله يا رسول الله . . ما أحلمك وما أصبرك ! !

ـ كم عانيت وكم قاسيت . .

ـ وكم تحملت في سبيل الإسلام . .

نعم يا رسول الله وحبيبه . . كم تحملت وقاسيت وعانيت أشد المعاناة من قومك ، ولكنك صبرت واحتسبت . وعندما جاءك جبريل عليه السلام بملك الجبال ليطبق عليهم الأخشبين جزاء ما فعلوا ، عفـوت وتسامحت وقلت : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » وتمنّيت أن يخرج من أصلابهم من يقول كلمة التوحيد . . فكان ما تمنّيت وخرج أمثال عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه . وصفوان بن أمية ، وعمير بن وهب ، وابن الزبعرى رضوان الله عليهم جميعاً .

أي عظمة هذه ، إنها عظمة الأخلاق المحمدية والتربية الإلهية .

(١) رواه البخاري ومسلم .

محمد صلى الله عليه وسلم كما يراه مفكرو الغرب

- عظمة المثل الأعلى للتكامل الإنساني . .
- عظمة من أدّبه ربه فأحسن تأديبه . .

هذا غيض من فيض مما أحبّك الناس لأجله يا رسول الله . . . وما دفعهم إلى التسامي بحبك والتفاني في طاعتك بما جئت به ، وبذلك الروح من أجل تنفيذه .

ومن منّا لا يذكر المرأة الدينارية التي قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجها وابنها في معركة أحد وجاؤوها بنعيهم فقالت : فما فعل رسول الله ؟ قالوا : خيراً . . هو بحمد الله كما تحبين . قالت : أرونيه حتى أنظر إليه . فلما رأتك يا رسول الله واطمأنت إلى سلامتك حمدت الله ، وقالت : « كل مصيبة بعدك جلل »[1] .

وزيد بن الدثنة الأسير الذي اتبعه صفوان ليقتله بأبيه أمية بن خلف . فأخرجوه من الحرم ليقتلوه واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان . فقال له حين قدم ليقتل : « أنشدك الله يا زيد . . أتحب أن يكون محمد عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ » فقال : « والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي »[2] .

فتعجّب أبو سفيان ، وقال : « ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً » .

---

(١) أي صغيرة فالجلل للكبير والصغير .

(٢) سيرة بن هشام ج ٢ / ١٧٢ ، ط دار القبلة .

محمد ﷺ كما يراه مفكرو الغرب

اتصل الأوربيون بالمسلمين خلال عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية بطريقين ؛ بطريق الأندلس حيث سطعت أنوارها خلال ثمانية قرون ، وبطريق المشرق في فترة الحروب الصليبية التي استمرت قرنين كاملين ، ورأوا ما وصل إليه المسلمون من التقدم المادي والأدبي ، واطلعوا على ما كان عندهم من أسباب التفوق الحضاري الشاسع ، وسطوا على مئات الألوف من الكتب والمخطوطات ، فعكفوا على دراستها وترجموا بعضها إلى لغاتهم ، وفي عصر النهضة التي بدأت قبل أكثر من خمسة قرون اتخذوا هذه الكتب أساساً لنهضتهم ، وقاموا بتدريس الكثير منها في مدارسهم وجامعاتهم ، وما تزال هذه الكتب تزخر بها مكتباتهم ، وتزهو بها أنفسهم .

ومع بداية عصر الاكتشافات الجغرافية ونشأة الإمبراطوريات الاستعمارية الأوربية ظهرت طائفة المستشرقين الذين بذلوا جهوداً مضنية للاطلاع على الثروة الأدبية والثقافية التي يمتلكها المسلمون، درس الحضارة الإسلامية وتراثها بقصد تحريفها وتشويهها في نظر أبنائها ، وكان أكثر هؤلاء من رجال الدين اليهود والنصارى الذين تشتعل صدورهم بالحقد على الإسلام ، وتغص حلوقهم بكراهية

المسلمين ، وكان أكثرهم من المرتبطين بوزارات الخارجية والاستعمار يمدونها بما تحتاج إليه في دعم استعمارها العسكري ، وغزوها الفكري ، وفرض قيمها الثقافية على الشعوب المستعمرة في آسيا وأفريقيا ، وقد تظاهر بعض المستشرقين بالحياد والموضوعية فاعترفوا ببعض ما في الإسلام من حقائق علمية وسبق حضاري بنية الدس والخداع ، ورغم ذلك فقد مهدت هذه الدراسات الاستشراقية إلى إماطة اللثام عن كثير من روائع الحضارة الإسلامية وذخائرها ، وبهرت المنصفين عظمة الإسلام ونبيه ورسالته الخالدة وما فيها من سبق علمي ، وسمو تشريعي وخلقي وتوازن مادي ومعنوي ، وشمول وصلاحية لكل زمان ومكان فأفاضوا في الثناء والتقريظ ، من خلال مقالات ومحاضرات ودراسات منهجية مستفيضة .

وبذلك أتيح للطبقة المثقفة من الأوربيين أن يقرأوا الكثير عن الإسلام وحقائقه ، وعن النبي ﷺ وشمائله وأخلاقه وكمالاته ، فاعترفوا له بالعظمة ، ونزهوه عما وصفه به الحاقدون الحمقى من الصفات الذميمة ، ودخل بعضهم في الإسلام عن رضى واقتناع ، وصاروا من الدعاة المتحمسين له ، وظل أكثرهم يقصرونه على النبوغ والعبقرية والعظمة والريادة في الإصلاح ، رغم وضوح نبوته ، والنور الذي جاء به من عند ربه .

وفيما يلي طائفة من أقوالهم ، وشهادات بعض من كشف الله عن بصائرهم أو أبصارهم فهنيئاً لمن هداهم الله منهم إلى الإسلام ، وتعساً لمن عميت عن الحق قلوبهم : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

محمد ﷺ في نظر الغربيين

* كارليـــــل :

من هؤلاء المفكرين المنصفين الكاتب الإنجليزي كارليل ، الذي أحب البطولة وقام بتتبع أصحابها في كل المجالات ، ثم ألَّف كتاباً بعنوان « الأبطال » ، أفرد فيه فصلاً كاملاً عن رسول الإسلام ، حذَّر فيه الناس من تصديق ما يشاع عن الإسلام من أكاذيب ، وما يذاع عن نبيه من أباطيل وتعدِّيات ، وقال : لقد ظلت الرسالة التي جاء بها محمد سراجاً منيراً لملايين كثيرة من الناس أربعة عشر قرناً . . فهل يعقل أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها تلك الملايين وماتت أكذوبة أو خديعة ؟؟ .

ثم سألهم : « هل رأوا رجلاً كاذباً استطاع أن يخلق ديناً ، وأن يتعهده بالنشر على الصورة التي انتشر بها الإسلام ؟ » . ثم يقول : « ما الرسالة التي أدَّاها محمد إلاَّ الصدق والحق ، وما كلمته إلاَّ صوت

صادق صادر من العالم المجهول . . وما هو إلاّ شهاب أضاء العالم كله . . ذلك أمر الله . . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

ثم يتحدث عن رسول الله ﷺ فيقول : « لقد أحببت محمداً لخلوّ نفسه من الرياء والنفاق ، وبراءتها من التصنع والطمع وحب الدنيا . لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وخالق الكون والكائنات ، وقد رأى سر الوجود يسطع أمام عينيه بأحواله ومحاسنه .

لقد كان صوت محمد آتياً من قلب الطبيعة الصحراوية النقية الطاهرة . ولهذا دلف من الآذان إلى القلوب ، واستقرت كلماته فيها . . ولم يكن محمد متكبراً ولا ذليلاً ، ولم يرض بالأوضاع الكاذبة ، ولم يتحرك خوف الأوهام الباطلة . ومن مكانه المتواضع وثوبه المرقع خاطب الملوك والقياصرة ، موجّهاً مرشداً ومنذراً محذّراً أيضاً . . إنه لم يخش في الحق لومة لائم ، ولم يقبل ما عرض عليه من مال وجاه وسلطان . وعاش زاهداً متقشفاً مجتهداً في الله ، عاملاً على نشر دينه ، غير عابيء بما يلاقي من أهوال ، وما يعترض سبيله من عقبات ، حتى مكّن الله للدين الحق في الأرض فانتشر وازدهر .

*** لورد هيدلي :**

ومن الذين درسوا الإسلام وأشادوا به وقالوا قولة الحق في نبيه الكريم : اللورد هيدلي ، الذي كتب : « فكرت وابتهلت أربعين عاماً لكي أصل إلى الحقيقة . ولا بد أن أعترف أن زيارتي للشرق المسلم ملأتني احتراماً للدين المحمدي السلس ، الذي يجعل المرء يعبد الله

طوال مدة الحياة لا في أيام الأحد فقط . وإني أشكر الله أن هداني للإسلام الذي أصبح حقيقة راسخة في فؤادي ، وجعلني ألتقي بسعادة وطمأنينة لم ألتق بها من قبل . لقد كنت في سرداب مظلم ، ثم أخرجني الإسلام في فسيح من الأرض ، تضيئه شمس النهار ، فأخذت أستنشق هواء البحر النقي الخالص » .

ويتحدث لورد هيدلي عن شخصية محمد بن عبد الله باعتبارها المثل الأعلى فيقول : « إن للنبي العربي أخلاقاً قوية متينة ، وشخصية وزنت ومحّصت واختبرت في كل خطوة من خطى حياته ، ولا نقص فيها على الإطلاق . وبما أننا في حاجة إلى نموذج كامل يفي باحتياجاتنا في الحياة ، فشخصية محمد النبي المقدس تسد تلك الحاجة : فهي مرآة تعكس علينا التعقل الراقي ، والسخاء والكرم والشجاعة ، والإقدام والصبر والحلم ، والوداعة والعفو والتواضع والحياء ، وكل الأخلاق الجوهرية التي تكوّن الإنسانية في أسمى صورها . وإنّا لنرى ذلك في شخصيته بألوان وضاءة .

*** مايكل هارت :**

وهذا مايكل هارت . . . عالم الفضاء الشهير ، الذي أغرم بالعظمة في الرجال ، وتتبع الخالدين منهم ، وقد ألّف كتاباً بعنوان « الخالدون مئة أعظمهم محمد رسول الله » . ومايكل ليس مسلماً ولكنه باحث أمريكي مسيحي . وقد اختار مائة شخصية من الشخصيات التي تركت أثراً بارزاً في حياة الإنسانية ، واختار الرسول

الأعظم محمداً ﷺ على رأس المائة . وهذا اعتراف من الغرب ولا ريب بفضل رسول الله ﷺ ، وفضل الإسلام على البشرية والحضارة .
ولنسمع ما يقول مايكل في كتابه :

« إن محمداً عليه السلام هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً في المجال الديني والدنيوي ، فهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات . وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً . ورغم مرور أربعة عشر قرناً على وفاته فإن أثره لا يزال متجدداً .

وقد استطاع مع المؤمنين بدعوته أن يقيموا إمبراطورية واسعة ممتدة من حدود الهند حتى المحيط الأطلسي ، وهي أعظم إمبراطورية أقيمت في التاريخ حتى اليوم . وقد نشروا الإسلام في كل بلد دخلوها . والرسول محمد هو المسؤول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعي والأخلاقي وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية . كما أن القرآن قد نزل عليه وحده ، وفي القرآن وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم » .

* دكتور جرنييه :

ويتحدث دكتور جرنييه عن سبب إسلامه بسعادة كبيرة ثم يقول : « لقد قرأت الآيات التي ترتبط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية ، وقمت بعمل دراسة عنها ، ثم قارنتها بالمعلومات الطبية والصحية والطبيعية التي درستها بالجامعة ، فوجدت الآيات القرآنية

منطبقة عليها تمام الانطباق .

ولقد أسلمت لأني تأكدت أن محمداً ﷺ أتى بالحق الصراح من قبل أن نصل إليه في عصرنا الحديث بأكثر من ألف عام . وأكاد أجزم لو أن كل صاحب فنّ أو علم قارن بين ما جاء في القرآن الكريم خاصاً بعلمه أو فنه وبين معلوماته الحديثة ـ كما فعلت أنا ـ لدخل في الإسلام كما دخلت إلا من كان معرضاً أو في قلبه مرض » .

* رينيه جينيو :

أو عبد الواحد يحيي كما سمى نفسه بعد إسلامه . إنه يقول : « لقد أردت أن أستعصم بنص إلهي مقدس ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فلم أجد ـ بعد الدراسة الطويلة العميقة المضنية ـ سوى القرآن الكريم . فهو الكتاب الوحيد الذي أقنعني ، وأمّن على ما جاء في قلبي . ورسول الإسلام هو الرسول الذي أحببته ، وسعدت بالسير تحت لوائه ، وغمرتني أقواله وأفعاله بالسعادة النفسية والسكينة الروحية . ولولاه ﷺ لغرقت الإنسانية في بحار المادية والإلحاد ، والانحلال الخلقي والدمار الروحي » .

ثم يقول عن الثقافة الإسلامية وأثرها في الغرب : « لقد كانت الثقافة والعلوم الإسلامية منبع نور وهداية . ولولا علماء الإسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون يتخبطون في دياجير الجهل والظلام » .

* ألفونس دينييه :

وهذا الفنان المصور العالمي : ألفونس أتيين دينييه ، الذي اعتنق

الإسلام بعد فترات طويلة من التأمل والتفكير ، وتسمى باسم ناصر الدين ، وكان ناصر دين الله ، فلم يدّخر وسعاً في سبيل الدفاع عنه ، وتصحيح المفاهيم التي نشرها المستشرقون عن حقيقة الإسلام .

وقد ألف كتاباً في السيرة النبوية أهداه إلى أرواح الشهداء الذين استشهدوا في الحرب الكبرى . يقول ألفونس : « العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير . ويستطيع الإنسان أن يكون مسلماً صحيح الإسلام وفي الوقت نفسه حرّ التفكير » .

ويقول : « الدين الإسلامي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشرياً وما إلى ذلك من الأشكال . إن ياهو إله اليهود الذي يمثلون به الطهارة يجعلونه في مظاهر متهالكة مبتذلة . وكذلك نرى الإله في نسخ الأناجيل المصورة . أما الإله في الإسلام فقد حدثنا عنه القران ، وحدثنا عنه الرسول ، ولم يجرؤ مصوّر أو نحات أن تجري به ريشته أو ينحته إزميل . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا صورة له ولا شبيه له أو مثيل . وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

* تولستوي :

أما تولستوي الكاتب الروسي الكبير فقد ساءه أن يوجّه أعداء الإسلام سهامهم إليه وإلى نبيه الكريم ، وكتب يقول : « لا ريب أن هذا النبي من كبار المصلحين ، الذين خدموا الإنسانية خدمات

جليلة . ويكفيه فخراً أنه هدى أمته بأكملها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح إلى السلام ، وتكفّ عن سفك الدماء . كما يكفيه فخراً أنه فتح الطريق إلى الرقي والتقدم ، وهذا عمل جليل لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً فوق إمكانيات البشر . ولهذا فهو جدير بالتقدير والاحترام والإجلال » .

رجاء جارودي :

وهذا روجيه جارودي الزعيم الاشتراكي الفرنسي والعالم الاجتماعي والفيلسوف الذي أوصلته زعامته إلى البرلمان الفرنسي يهتدي إلى الإسلام بعد رحلة طويلة قضاها بين الأديان والعقائد والفلسفات المختلفة . وعندما درس الإسلام وعرف حقيقته ، كفر بما عداه ، وصاح معلناً أنّه لم يعد يستطيع الصمت ، ثم قرر أن الإسلام هو الدين الحق ، وأن فيه الحل الوحيد لإنقاذ البشرية ، التي تحتضر في مواجهة المصير المظلم ، الذي أوصلتها إليه أديانها البالية وفلسفاتها الخداعة الفاشلة ، ويغير الرجل اسمه فيتخذ (رجاء) اسماً له ، ويتحدث جارودي باستفاضة عن الإسلام ومستقبل الإنسانية ويقول : « إن الحضارة الجديدة تنبع من الإسلام عقيدة ومنهج حياة » .

وينتقل إلى الحديث عن سماحة الإسلام فيقول : « لقد اعترف القرآن بأهل الكتاب ـ أصحاب التوراة والإنجيل ـ وترك لهم حرية الاختيار بين ما هم عليه وبين الدخول في الإسلام . والرسول محمد ﷺ

يقول : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » فالناس يتمايزون في الإسلام بالتقوى ، ويتفاضلون بالعمل الصالح ، لا بالغنى والجاه والحسب والنسب ـ والكلّ أمام الله سواء ـ فلا طبقية ولا أمم مختارة أو عناصر متميزة . فالإسلام دين الإخاء والتكامل الاجتماعي والمساواة في أجمل صورها .

ولم يكن الإسلام في حاجة إلى القوة أو السلاح لكي ينتشر ، لأن طبيعته وأحكامه وسماحته والقدوة الحسنة التي كانها رسوله ، قد فتحت الطريق إلى قلوب الناس . ويشير جارودي إلى الحديث النبوي الشريف : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وهو جهاد النفس ضد أهوائها ونزواتها ، كالظلم والطمع والأنانية والأثرة ، والضعف وحب المال والتكالب عليه . ثم يقول : إن هذا الموقف النبوي العظيم درس هام لأولئك الثوريين الذين يريدون تغيير كل شيء إلا أنفسهم .

ثم يستعرض جارودي عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة ويبين ما فيها من جمال وإنسانية مترفعة ، ويركز جارودي على الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه والحديث الشريف : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره » . والحديث الشريف : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . والحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً » ثم يقول جارودي : « هذه الأحاديث دستور عام ينبغي على المسلمين أن يلتزموا به في حياتهم ، باعتبارهم أمّة ذات أهداف كريمة على أسس قويمة ؛ فهو دستور يصون

حقوقهم فيما بينهم ، ويرمي إلى قيام صداقة حقيقية ومحبة صادقة قوية توثق علاقة المؤمن بالمؤمن ، وتجعلهم بحق كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً » .

* ريون باسورت سميث :

يقول هذا العالم ، وهو أستاذ بجامعة أكسفورد في محاضرة ألقاها بعنوان « محمد والمحمدية » ١٨٧٤ م : « لا نجد فيما كتبه المؤرخون الأولون عن محمد ورسالته أساطير ولا أوهاماً ولا مستحيلات . . كل شيء واضح وضوح النهار . . وكأنه الشمس في الضحى يتبين تحت أشعتها كل شيء . . والعجيب أنه لا توجد شخصية علمية كُتب عنها طول العصور ما كتب عن محمد رسول الإسلام » .

مرجليوث :

وذكر مرجليوث في كتابه « محمد » المطبوع ١٩٠٥ م في سلسلة عظماء الأمم : « إن الذين كتبوا في سيرة محمد لا ينتهي ذكر أسمائهم . وإنهم يرون من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوئه مجلساً بين الذين كتبوا سيرة هذا الرسول » . وتذكر مجلة المقتبس ـ التي كان يصدرها محمد كرد علي منذ أكثر من ثمانين عاماً ـ أنها أحصت ما أُلف في السيرة النبوية بلغات أوروبا فبلغ ألفاً وثلاثمائة كتاب : فكيف بما ألف خلال الثمانين عاماً الأخيرة بمختلف اللغات وباللغة العربية ؟؟

سيدي يا رسول الله . .

يا أشرف المرسلين وخاتم النبيين .. يا من عليك صلى الله والملائكة أجمعون .. كيف السبيل إلى إحصاء وجوه العظمة في شخصيتك ؟

إن لكل عظيم في هذه الدنيا وجهاً من أوجه العظمة يتميّز به .. وأنت قد تميّزت بكل وجوه العظمة ... فكنت الكمال المطلق في الحدود الإنسانية ... وكنت المصطفى والمتفوق على الجميع .. ومهما حاول ويحاول العلماء والمفكرون فلن يستطيعوا إحصاء جوانب العظمة في شخصيتك ، ويكفيك شرفاً وفخراً قول الله عز وجل في بيان منزلتك في الملأ الأعلى، وفي المسلمين من أهل الأرض: « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً » .

رجل من القريتين عظيم

تحُوْلُ الكبرياءُ والغطرسة دون رؤية صاحبها للحقيقة ، وتحجب عنه الرؤية ، وتمنعه من اتّباع الحق .. بل وقد تأخذ بيده نحو الهلاك لمجرد العناد والمكابرة . فلا هو بقادر على رؤية الحق حقاً ، ولا هو بمتّبعه . ولذلك كان من خير الدعاء :

« اللهم أرنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

وقصة الكبر والتكبر والاستكبار في الإنسان قديمة قدم خلقه . فهي تبدأ يوم أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (سورة ص : ٧٣-٧٨) .

وقد عرف إبليس حجم هذه الخطيئة وخطرها فأغرى بها الإنسانَ - غريمه - ولا يزال يغريه وسيظلّ إلى يوم يبعثون . فقد أقسم بعزة الله قائلاً : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (سورة ص : ٨٢ - ٨٣) .

لذلك حذر الله من الكبرياء والغطرسة فقال في الحديث القدسي : «العز إزاري ، والكبرياء ردائي فمن ينازعني في واحد منهما

فقد عذبته»[1] .

وهـذه صناديد قريش التي شهـد لها العـرب بالحكمة والعقل والقيادة في الـرأي ؛ حالت الكـبرياء والغـطرسـة دونهم ودون رؤية الحقيقـة ، فرغم معـرفتهم بصـدقـه وأمـانتـه ، فقـد كذّبوه وعادَوه وحاربوه ، وآثروا الغواية على الهداية ، والضلال على الهدى ، والفساد على الصـلاح ، وأنكروا الحق وهم له عارفون . واستمرّوا في التكبر والغـطرسـة والعناد حتى أوردتهم موارد الهلالك ، وكانوا كما قال الله تعـالـى فيهم : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

كانوا يعرفون عظمة محمد خلقاً وأصلاً ونسباً واستقامةً . . وكانوا يدركون أنه لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح براً وفضلاً ونبلاً . فهو من ذرّية إبـراهيم ، وزرع إسماعيل ، وعنصر مُضَر ، وأهله حَضَنَةُ بيت الله وسُوَّاس حرمه ، ومع ذلك أعمتهم الكبرياء والغطرسة عن رؤية الحقيقة . وظلوا على أصنامهم عاكفين . . وكان ما يقلقهم أن النبوة جاءت في شخصية محمد ، وأن القرآن قد أنزل عليه . وكانوا يودّون لو أنزل على ﴿ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ .

وهكذا رأوا العظمة بمقاييسهم ومعاييرهم ، وكذلك سوّلت لهم أنفسهم التي امتلأت حسداً وكبرياء واستعلاء وغطرسة . . وقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الزخرف : ٣١)

(روى البيهقي) بالسند عن أبي إسحاق قال : مرّ النبيّ ﷺ

(١) رواه مسلم .

على أبي جهل وأبي سفيان ، وهما جالسان ، فقال أبو جهل : هذا نبيكم يا بني عبد شمس . قال أبو سفيان : وتعجب أن يكون منا نبي ، فالنبي يكون فيمن أقلّ منّا وأذلّ . فقال أبو جهل : أعجب أن يخرج غلام من بين شيوخ نبياً . ورسـول الله ﷺ يسمـع . . . فأتـاهما فقال : « أما أنت يا أبا سفيان ، فما لله ورسوله غضبت ، ولكنك حميت للأصل . وأما أنت يا أبا الحكم ، فوالله لتضحكن قليلاً ولتبكينّ كثيراً » . فقال : بئسما تعدني يا ابن أخي من نبوتك .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ (الفرقان : ٤١) .

كانوا يرونه ﷺ يجلس إلى أصحابه من المستضعفين في المسجد ، أمثال صهيب وعمّار وخبّاب وأبي فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية ، فتأبى أنفسهم المتكبّرة أن تؤمن بأن هؤلاء قد مَنّ الله عليهم بالهداية . ولهذا كان سؤالهم : ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ﴾ (الأنعام : ٥٣) . وهكذا سوّلت لهم أنفسهم أن الرسالة والهداية لا تنزل إلا على أغنياء أو عظماء بمعاييرهم ، فدفعهم ذلك إلى تكذيبه ، وهم يعرفون صدقه .

وروى الإمـام أحمـد بسنده عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعـراء : ٢١٤) ، أتـى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً

بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يديّ عذاب شديد . فقال أبو لهب لعنه الله : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ، وأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد : ١) وأخرجه البخاري ومسلم .

ومسلم .

ولا جدال في أن أبا الحكم عمرو بن هشام أو أبا جهل كما سماه المسلمون كان أعنف وأحمق معارضي رسول الله ﷺ ، فقد ركب الشيطانُ رأسَه ، ووضع على عينيه غشاوة من الكبرياء فعمي عن رؤية الحقيقة . وعندما سأله أصحابه عن رأيه بعد أن سمع القرآن سِراً ، قال حانقاً : « لقد تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف ـ أطعموا فأطعَمنا ـ حَملوا فحَملنا ـ أعطَوا فأعطَينا ؛ حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسَي رِهان قالوا : منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ؟ . . واللات لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه أبداً » .

هكذا رفض الحقَّ ، تكبُّراً واستعلاءً وبطراً .

ويأتي بعد أبي جهل على سلّم الكبر والتكبّر والعجرفة والاستكبار والغرور ومعاداة الإسلام ، والاجتهاد في إيذاء الرسول ﷺ وإيذاء أصحابه : النضر بن الحارث ، أو شيطان قريش كما كانوا يسمّونه .

يقول ابن هشام في السيرة « ١ / ٢٩٨ » : (وكان النضر قد سافر إلى الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأساطير رستم وإسفنديار . فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر الله وحذّر أصحابه ما أصاب الأقوامَ مِن قبلهم من نقمة ، خلفه النضر في مجلسه

ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن منه حديثاً ، فهلمّ إليّ أحدّثكم عن ملوك فارس ، وأروي لكم أخبار رستم وإسفنديار ، ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟) .

وقال ابن إسحاق - وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول فيما بلغني : نزل فيه ثماني آيات من القرآن مختتمة بقول الله عز وجل : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (القلم : ١٥) .

كان محمد ﷺ المثل للكمال الإنساني في أبدع صوره ، والتكوين البشري في أجمل أوضاعه ، وكيف لا وقد اختاره العليم الخبير ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، وحامل الرسالة الأخيرة إلى الناس كافة ، وقد أرسله إلى الدنيا بشيراً ونذيراً وهادياً ومرشداً وسراجاً منيراً وداعياً إلى الله بالحق ، وجعله رحمة للعالمين وشفيعاً يوم الدين ثم قال له : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

ولقد شاء الله جل جلاله أن ينتصر الحق على الباطل ، ويدمغه ، فإذا هو زاهق .

كل أولئك الذين تكبّروا . . والذين كذّبوا . . والذين تعالوا . . والذين رفضوا نبوة هذا النبي الكريم لمجرد الكبرياء والغطرسة ؛ شاء الله أن ينصره عليهم ويؤيده . وشاء سبحانه أن يلقى هؤلاء مصارعَهم وهم في قمة كبريائهم . فقد هلك أبو جهل يوم بدر ، وكذلك هلك النضر بن الحارث وغيرهما من سادة قريش المتكبرين الطغاة المتغطرسين .

وما أروعها من صورة أن يقف رسول الله ﷺ ، بعد انتصار

المسلمين في بدر ، على القليب مخاطباً جثث القتلى قائلاً : « يا أهل القليب .. بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم .. كذبتموني وصدّقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس . هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ .. فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً »[1] .

وروي أنه ﷺ نادى طائفة من زعماء الشرك والشر والتكبر والغطرسة بأسمائهم .

فقال الحاضرون : يا رسول الله أتنادي قوماً قد جَيَّفوا ؟ فقال عليه أزكى الصلاة والسلام : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا » .

وهكذا نالوا جزاء تكبّرهم وغرورهم ، وحصدوا نتائج صَلَفهم وغطرستهم ، مع أن القرآن نزل بلغتهم وفي بلدهم ، ولو قدروا هذا المعنى الجليل لما تكبّروا ولا اغترّوا . ولكنهم فعلوا ما فعله الشيطان يوم أمره الله سبحانه وتعالى بالسجود لآدم فأبى واستكبر وقال ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ (الأعراف : ١٢) .

ليت شعري هل نتعلّم في هذا الشهر الكريم : شهر رمضان المبارك ،

أن نتواضع ..

وأن نعلّم أبناءنا حبّ التواضع ..

ونعرّفهم أن مَن تواضع لله رفعه ..

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج ١ / ٦٣٩ .

بل وُلِدَ في مكة ﷺ

ما هي البقعة التي باركها الله تعالى ، واختارها لأن تكون مولداً لأحب أحبابه عليه ، وأقرب رسله منه ، وصفوة خلقه أجمعين صلوات الله وسلامه عليه ؟ لا بد أن تكون بلداً يهيؤها وضْعُها ، وتؤهلها مكانتها ، للحظوة بهذا الشرف الذي ما بعده من شرف ؛ ولأن تكون مطلعاً لهذه الشمس ، التي لم تطلع في سماء الهداية والعرف شمس مثلها ، ولَنْ .. حتى يقوم الناس لرب العالمين ، وتتبدل الأرض غير الأرض والسموات .

مَنْ أجْدَرُ بهذه الحظوة من مكة التي فيها أول بيت ، وأعظم بيت وضع للناس؟ إنها وحدها الخليقة ـ أو الجديرة بأن يولد بها خاتم الأنبياء ، وأعظم الرسل ، الذي لم يرسل رسول قبله للناس كافة .

وإذا كانت مكة هي البقعة المباركة التي اختارها الله ليمكّن لأهلها حرماً آمناً ويُتخطّفُ الناسُ من حولهم ، فهي إذن وحدها الخليقة بأن تكون مولداً لمن اختاره الله وأرسله رحمةً للعالمين ، أجمعين ..

قد يقال إذا كانت العبرة بالأفضلية ، فلماذا لا يكون مولده ﷺ بالمدينة المنورة ..

صحيح أن هناك خلافاً بين العلماء في أفضلية مكة المكرمة ، فمنهم من يرى أن المدينة المنورة أفضل ، لأنه ﷺ وإن كان بمكة وُلد ، فإنه بالمدينة دُفِن فضلاً عن أن مكة أخرجته ، والمدينة آوته ونصرته ! إلى غير ذلك ؛ إلا أن الراجح هو أن مكة المكرمة أفضل بقاع الأرض ، باستثناء الجزء الذي يضم جسده الشريف من المدينة المنورة ، فالأماكن تبارك بمن يرمسها ، يقول الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ويقول : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ﴾ فلم تقتصر بركته على أنه أسس على التقوى من أول يوم ، بل زادت هذه البركة بمن فيه منْ رجال يُحبّون أن يتطهروا فأفضل البقاع . . قولاً واحداً ، ما لامسه جسده الشريف ، صلوات الله وسلامه عليه . . وإلا فالراجح أن مكة هي الأفضل .

والذي يهمنا هنا ـ على أية حال ـ هو أن مكة المكرمة بلده ، وهي مهوى أفئدة الناس ، وقبلة المسلمين ، فمن اتجه إلى غيرها في الصلاة ، لم تُقبَل صلاته ، وهو ﷺ رسول الإسلام ، من لم يؤمن به خَسِرَه ، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين . فالمقابلة بينه وبين مكة المكرمة في هذه الناحية أتَمّ ، صلوات الله وسلامه عليه .

وكما نفهم من القرآن الكريم الإشارة إلى أن مكة المكرمة هي بلده ، ومسقط رأسه الشريف ، صلوات الله وسلامه عليه ، فكذلك نفهم الإشارة من الحديث الشريف .

ففي صحيح البخاري وردت قصة عتق ثويبة ، وهي جارية لأبي

لهب ، لم تكد توافِي سيدها ببشرى المولد حتى أعتقها ؛ وليس بمعقول أن تستطيع ثويْبة هذه نقل الخبر إلى سيدها في الساعة نفسها ، لو لم يكن البيت الذي تمت فيه الولادة قريباً من بيت أبي لهب . ثم إن هناك ما يؤكد أن بيت رسول الله ﷺ وبيت أبي لهب كانا متجاورين في شِعْب واحد . وهو ما رُوي عن أم جميل زوج أبي لهب ، وكيف أنها كانت تلقي بالقاذورات أمام بيت رسول الله ﷺ . وكانت تحمل الحطب والأشواك وتطرحها على طريقه ﷺ حين يمر ، وقد ورد ذلك في سورة المسد حيث يقول الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ كل ذلك يدل على أن البيتين كانا متقاربين ، مِمّا سهَّل علي ثويبة نقل الخبر في توِّه إلى أبي لهب .

ولا شك أن سيدنا محمداً ﷺ كانت له دار في مكة المكرمة ، وهي التي ولد فيها ، بدليل ما أسلفنا من براهين ، وهي التي استولى عليها عقيل ابن أبي طالب بعدما هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة ، وهي التي يشير إليها الحديث الشريف [وهل ترك عقيل من دار] ، وعلى أساس ذلك قال ابن القيم في كتاب زاد المعاد [لا خلاف في أنه ﷺ ولد بجوف مكة] وهو يعلم قطعاً أن هناك خلافاً في هذا ، إلا أنه رأى أنه خلاف لا يستحق أن يذكر ، إلا من باب الأمانة في العلم ، لا من باب الأخذ والرد . . وكذلك فعل الطبري وهو يستعرض الأماكن التي تستحب زيارتها وهي الدار التي ولد فيها ﷺ واستولى عليها عقيل بن أبي طالب زمن الهجرة .

وكما أن المؤرخين اختلفوا في مولده ﷺ هل كان داخل مكة

أو خارجها ، فإنهم كذلك اختلفوا في تحديد المكان من مكة المكرمة نفسها ، على أقوال سنعود إليها في حينها ، إن شاء الله تعالى .

الذي يهمنا هنا هل هذه الاختلافات تجعل من المستحيل أو ـ على الأقل ـ من المتعذر الجزم بصحة رأي معيّن من هذه الآراء المختلفة ، خاصة ، كما يقول عبد الله العياشي المغربي [الذي توفي في أواخر القرن الحادي عشر الهجري] إن الولادة كانت في الجاهلية ، وما كان العرب في الجاهلية ، بل لم يكن من السهل عليهم ، أن يعتنوا بالأمكنة وضبطها، لا سيما إذا لم ترتبط بمصلحة أو غرض ؛ وحتى حين جاء الإسلام ، انصرف المسلمون إلى الجهاد ، وحفظ الشريعة ، وأغفلوا أمر الأماكن إلا ما تعلق بها عمل شرعي .. إلخ إلخ .. هل هذا يجعل من المستحيل ، أو المتعذر ، تحديد المكان الذي ولد فيه ﷺ ؟

كان يمكن أن نسلم بذلك ، ولو من حيث المبدأ ، لولا أن مولد النبي ﷺ ارتبطت به أشياء كثيرة تجعل من المستحيل « تعْويم » موقعه ، والحيرة في تحديده على صفة الجزم .. وغنيٌّ عن البيان أن الحوادث ، إذا تعلقت بها أمور جانبية ، ازدادت رسوخاً في الذاكرة ، ووضوحاً في التاريخ ، بقدر أهمية تلك الأمور التي تعلقت بتلك الحوادث ، وبقدر أهمية الشخص أو الأشخاص الذين تدور في فلكهم هذه الحوادث .

ألا ترى كيف كان ابن عمر رضي الله عنهما « تتبّع آثار رسول الله ﷺ في كل مسجد صلى فيه ، ويعترض براحلته في كل طريقٍ مرَّ بها

رسول الله ﷺ يتحرّى ، كما قال هو نفسه ـ أن تقع أخفاف راحلته ، على بعض أخفاف راحلة رسول الله ﷺ ، قاله الزبير بن بكار[1] .

ورُوي عن نافع : أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما كان يتتبع آثار رسول الله ﷺ في كل مكان صلّى فيه ، حتى أن النبي ﷺ نزل تحت شجرة ، وكان ابن عمر يتعهد تلك الشجرة فيصب في أصلها الماء كيلا تيبس[2] .

وعن ابن وهب عن مالك ممن حدثه ، أنّ ابن عمر كان يتبع أمر رسول الله ﷺ ، وآثاره ، وحاله ويهتم به .

وعن عاصم الأحول عن من حدثه قال: كان ابن عمر إذا رآه أحد قال كأن به شيئاً من شدة اتباعه آثار النبي ﷺ[3] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان أحد يتبع آثار النبي ﷺ في منازله كما كان يتبعه ابن عمر .

شاهدنا من ذلك ، وهو قطرة من بحر ، أن الأماكن والآثار إذا ارتبطت بأمور جانبية ، كان ذلك سبباً في رسوخها ، وبرهاناً على صحتها .

وقد ارتبطت بميلاده ﷺ أشياء كثيرة تفوق الحصر :

منها : قصة « ثويبة » ـ الجارية التي أعتقها أبو لهب حين نقلت

---

(١) تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٢) أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٣٤ ، سير النبلاء ج ٣ ، ص ٢١٣ .

(٣) طبقات بن سعد ، ج ٤ ، ص ١٤٤ .

إليه بشرى ميلاد ابن أخيه ؛ محمد صلوات الله وسلامه عليه ؛ وقد كان من الممكن ألا يكون لهذه الحادثة أمر يذكر لولا العداء الذي أظهره أبو لهب وزوجه [حمالة الحطب] لرسول الله ﷺ ، فكانت المقابلة بين هذه العـداوة ، وتلك الفرحة بميلاده ﷺ مَعْلَماً بيّناً ، يلقي الضوء ساطعاً على مكان الولادة ويثبِّت ذلك ويرسِّخه في عقول الناس خاصة بعـد أن أصبحت هذه القصة تدور ، لا حول شخص عادي وإنما حول رجـل غيَّر مجرى التاريخ وأحدث في العالم عامّة ، وفي الجزيرة العربية خاصة ، دوياً لم يشهد له التاريخ من مثيل ؟ .

ومنها : ما ذكره ابن هشام تحت عنوان « إعلام جدّه عبد المطلب بولادته ﷺ » قال : فلمّا وَضَعَتْه أمه أرسلتْ إلى جدّه ، أن قد وُلِدَ لك غلام ، فَأْتِه فانظر إليه ، فأتاه فنظر إليه ، وحدثته أمه بما رأت حين حملت به ، ومـا أمـرت أن تسميه ، وقد فرح جده وأخذه ، فدخل الكعبة ، وقام يدعو الله ويشكره على ما أعطاه منشداً .

الحمد لله الذي أعطاني
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من شر ذي شنان
من حاسد مضطرب الجَنَان

ورد عبـد المـطلب الـوليد الكريم إلى أمه ، ثم أمر بأنْ تُنحر

الذبائح ، وتولم الولائم ، ويطعم الناس في الحرم » .

وإن شخصـاً يُفْـرح بميلاده مثـل هذا الفرح ، وتخرق لوضعه العـادة ، لخليق ألاّ ينسى مكان ولادته ، خاصة إذا جمع المجد من أطرافه ، ودخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وفاق كل من دخلوه قبله ، ومن يدخلونه من بعده ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومنهـا : ما روتـه أم عثمان بن أبي العـاص مما شاهدته من العجائب ، قالت « كنت مع آمنة رضي الله عنها أوان السحر من ليلة الاثنين . . وما كاد نور الفجر يطلع حتى كانت آمنة قد وضعَتْ وليدها الكريم . . فما من شيء أنظر إليه من البيت إلاّ نُوِّر ، وإني لأنْظر إلى النجوم تدنو مني ، حتى لأقول : لتقعَنَّ عليَّ » .

وقـالت مثـل ذلـك الشفـاء في حديثها المشهور : إنها حضرت الولادة ، وأنها رأت نوراً يسطع في جميع الدنيا ، والملائكة ترد على رسول الله ﷺ فتقول رحمك الله . .

ولا شك أن بيتـاً يمتلىء بالنور ، ثم يسطع هذا النور في جميع جهـات الـدنيا ، منبعثـاً من هذا البيت ، ثم يخيَّل للحاضرين أن النجوم تدنو وتتدلى ، حتى لتقول أم عثمان ابن أبي العاص « لتقعَنَّ عليَّ » أن مولداً ترتبط به دون هذه الأمور بكثير لخليق أن يزداد كل يوم رسوخاً في ذاكرة التاريخ . افتريد بعد ذلك من دليل ؟

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

دعْك مما ذكرت السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها ، خاصة وأنها كما تقول : « خرجت في نسوة من بني سعد بن بكر ، نلتمس

الرضعاء في سنَة شهباء ، حتى قدمنا مكة فما من امرأة إلاَّ وقد عرض عليها محمد ، فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم »(١) .

فهـا هي السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها تذكر أن مكة المكرمة هي مولد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ولقد أسلمت هي وزوجها كما أسلمت الشفاء كما كان هناك كثيرون من أقارب النبي ﷺ ممن عاصروا مولده الشريف ، ثم دخلوا في الإسلام فكان لذلك بعد ، بل أبعاد تزيد من ترسيخ مكان ولادته ﷺ في العقول وفي التاريخ .

لقد كان ابن القيم على حق حين قال « لا خلاف في أنه ﷺ ولد بمكة المكرمة » . مع علمه رحمه الله بوجود الخلاف ، إلا أنه خلاف لا يُعتبر ولا يقام له وزن بعد كل ما رأيت .

السؤال ، إذن هو : في أي موضع من مكة المكرمة كانت ولادته عليه الصلاة والسلام ؟

لعـل من الخير أن نبدأ أولاً بذكر أهمِّ الأقوال الخاصة بمكان ولادة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لنتأكد من صحة ما خلصنا إليه في مقالنا السابق .

يقول ابن سيد الناس محمد بن محمد العمبري [٦٧١ / ٧٣٤] في كتابه « عيون الأثر في سيرة سيد البشر :

وَوُلِدَ في الدار التي تُدْعَى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ؛ وقيل إنـه ولـد في شعب بني هاشم ويقـول الحـافظ بن مغلطاي [٦٨٩ - ٧٦٢] في كتابه « الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ مَن

(١) سيرة ابن هشام .

بعدَه من الخلفاء .

[وولد ﷺ بمكة ، في الدار التي كانت بعد ذلك لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ، ويقال بالشعب ، ويقال بالردم ، ويقال بعسفان] .

وقال الإمام السهيلي في كتابه المسمى بالروض الأنف :

[وولد بالشعب ، وقيل بالدار التي عند الصفا] .

وذكر ابن هشام أنه ﷺ :

[وُلِـدَ في الـدار التي كانت عنـد الصفـا ، وكـانت بعدُ لمحمد بن يوسف أخي الحجاج] .

ورُوِيَ عن عبد الله بن جراد أنه قال :

[ولد رسول الله ﷺ بالردم . .] .

ولا داعي لاستعراض جميع الأقوال ؟

والذي أريد أن يلحظه القارىء هنا أن كل قول ـ مما ذكرنا أو لم نذكر ـ يشير إلى ولادته ﷺ خارج مكة المكرمة ، كعسفان أو الأبواء ، إنما جاء بصيغة التمريض إشارة إلى ضعف الاعتماد عليه .

بينما الأقوال الأخرى لم تجيء بهذه الصيغة ، في حين أنها اتفقت جميعاً على حدوث الولادة الشريفة بمكة المكرمة . .

فالأقـوال المعتـد بها ـ جميعـاً ـ تَنصَبُّ على ولادتـه ﷺ بمكـة المكـرمـة . فإذا أضفت إلى ذلـك ما يفهم من الإشارات القرآنية ، علاوة على ما يمليه التواتر المستفيض ، أيقنت أن كل قول يقول بغير

السؤال إذن :

في أي بقعة من بقاع مكة المكرمة حدثت الولادة الشريفة ؟ أفي الدار التي تُدْعَى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ؟ أم في الردم أم بالشِّعب ؟ وأي شعب ؟ إلخ إلخ . .

لنستطلع آراء أقدم المؤرخين :

إن أقدم من ألف في تاريخ مكة ـ حسبما وصل إليه علمنا ـ هو محمد بن عمر الواقدي ـ توفى سنة ٢٠٧ هـ .

يليه علي بن محمد المدائني ـ توفى سنة ٢٢٥ هـ .

يليه أبو الوليد الأزرقي ـ توفي سنة ٢٥٠ هـ .

يليه الزبير بن بكار ـ توفي سنة ٢٥٦ هـ .

يليه عمر بن شبة ـ توفي سنة ٢٦٢ هـ .

يليه محمد بن إسحق الفاكهي ـ توفي سنة ٢٨٠ هـ .

والمؤسف أنه لم يبق من آثار هؤلاء المؤلفين ـ فيما يختص بالتداول بين النـاس إلا كتاب أبي الوليد الأزرقي المسمَّى « أخبار مكة » كما توجد نسخة واحدة من كتاب أبي إسحٰق الفاكهي حَبِيسَة في إحدى خزائن أوربا .

فالعمدة في تاريخ مكة ، إذَنْ . هو كتاب أخبار مكة للأزرقي ، رحمـه الله ، ألَّف قبل منتصف القرن الثالث الهجري ، لذلك فهو أقرب الكتب التي بين أيدينا صلة بالعهود التي سبقته ، فضلاً عن أن مؤلفه مكّي ، يروي عن جده ، المكي ، وأهل مكة أدرى بشعابها ،

كما يقولون ؛ فمعلوماته إذن أدق وأوثق من أي تاريخ حتى الآن . . إلاّ ما كان في علم الغيب ، حتى يظهره الله في الوقت الذي يريد . .

يقول الأزرقي في كتابه « تاريخ مكة » ـ فيما أضاف إليه الأستاذ احمد السباعي شيئاً من الإيضاح ، بعد كلام طويل :

[فإذا نفذنا إلى شارعنا العام في القشاشية ، متوجهين إلى أعلى مكـة استقـام أمـامنـا سوق كانوا يسمونه سوق الفاكهة ، ثم سوق الرطب ، ثم رباع كانت لبعض بني عامر ـ وعند سوق الليل تصافحنا الدار التي كانوا يسمونها مال الله ؛ وبالقرب من الدار يلتوي شِعْب ابن يوسف وهو ما نسميه اليوم شِعْب عليّ ، وفيه دور عبد المطلب بن هاشم ، ودُور أخرى لأبي طالب ، وأخرى للعباس بن عبد المطلب » .

وعلى ذلك ، فما دامت الولادة قد تأكد حدوثها في مكة المكرمة ، فإنها تكون قد انحصرت في هذه الدور ، دور عبد المطلب بن هاشم ، ودور أبي طالب والعباس . . ففي أيٍّ من هذه الدور كانت ؟

نرجع إلى الأزرقي مرة أخرى ، وهو يتكلم عن دور قريش ، [أو ما يسميه رباع قريش] وحلفائها . .

يقول الأزرقي رحمه الله : [أولها رباع بني عبد المطلب بن هاشم ـ قال أبو الوليد : « الدار التي صارت لابن سليم الأزرق ، وهي إلى جانب دار بني مرحب ، صارت لإسماعيل بن إبراهيم الحجرة ، وهي قبالة دار حويطب بن عبد العزّى ، إلى منتهى دار إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبـد الله « فلولده الحارث بن عبد المطلب أول ذلك الحق ـ يعني

المِلْك ـ هو الشعب ، شعب ابن يوسف (المسمى حالياً شعب علي) وبعض دار ابن يوسف المولد ، مولد النبي ﷺ وما حوله لأبي النبي ﷺ ، عبد الله بن عبد المطلب ـ والحق الذي يليه (يعني الملك) حق العباس بن عبد المطلب (وهي دار خالصة ـ مولاة الخيزران) ثم حق المقوم بن عبد المطلب [وهي دار الطلوب مولاة زبيدة] ثم حق أبي لهب ، وهي دار أبي يزيد اللهبي ـ فهذا آخر حقهم في هذا الموضع . . ويستمر الأزرقي فيقول . . [وللعباس بن عبد المطلب أيضاً الدار التي بين الصفا والمروة التي بيد ولد موسى بن عيسى التي كانت إلى جانب الدار التي بيد جعفر بن سليمان ، ودار العباس هي الدار المنقوشة التي عندها العَلَمُ الذي يسعى منه من جاء من المروة إلى الصفا ـ ويزعمون أنها كانت عند الحناطين عند المنارة فدخلت في المسجد الحرام حين وسعه المهدي آخر سنة ١٦٧ »[1] .

عندنا إذن دار للحارث بن عبد المطلب اشتريت منه ، يليها الشعب المسمى الآن شعب علي ، كما يليها بعض دار ابن يوسف التي هي لأبي طالب ، ثم الدار التي لوالد النبي ﷺ ، عبد الله بن عبد المطلب ، تليها دار العباس بن عبد المطلب ، ثم دار المقوم بن عبد المطلب ، ثم دار أبي يزيد اللهبي ، وهي ملك لأبي لهب .

وعندنا أيضاً دار العباس بن عبد المطلب التي بين الصفا والمروة .

ولا ننسى دار الندوة . قال أبو محمد أسحٰق بن أحمد بن إسحٰق بن نافع الخزاعي : [فكانت دار الندوة ـ على ما ذكره الأزرقي في كتابه ـ لاصقة بالمسجد الحرام في الوجه الشامي من الكعبة ، وهي دار

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ١٦٧ .

قصي بن كلاب وكانت قريش ، لتبركها بأمر قصي ، تجتمع فيها للمشورة ، في الجاهلية ، ولإبرام الأمور ، ولذلك سميت دار الندوة للاجتماع الذي كان يتم فيها . . ثم كانت الندوة ـ بعدُ ـ لهاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ؛ ثم إلى ابنيه عمير أبي مصعب بن عمير ، وعامر ، ابنيْ هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ؛ ثم ابتاعها معاوية بن أبي سفيان . . »[1] .

ثم منزل خديجة بنت خويلد ، يقول الأزرقي [وهو البيت الذي كان يسكنه رسول الله ﷺ ، وخديجة رضي الله عنها . ولدَتْ خديجة فيه أولادها جميعاً ، وتوفيت فيه ، وسكنه النبي ﷺ حتى هاجر ، فأخذه عقيل بن أبي طالب . . »[2] .

هذه هي مظان مكان ولادته ﷺ ، على العموم ؛ ففي أي دار من هذه الدور ولد ؟

لا شك أن البيت الذي ولد فيه رسول الله ﷺ هو بيت والده عبد الله بن عبد المطلب ، وهو البيت الذي ـ كما رأينا ـ يقع في رباع بني عبد المطلب ، فليس معقولاً أن يولد في دار الندوة ، لأنها ليست دار أبيه كما أنها دار لإبرام الأمور ، وليس معقولاً كذلك أن يولد في بيت العباس ما بين الصفا والمروة ، ولا في بيت أم هانيء ، ولا في بيت خديجة بنت خويلد القريبة من ردم عمر ؛ ما دام لأبيه ﷺ بيت هو الأوْلى بأن يولد فيه . . ولم يذكر التارخ سبباً يمنع من ذلك .

---

(١) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب ، وابن سيد الناس في عيون الأثر .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ، ص ١٧٠ ـ الزرقاني جـ ١ ص ١٤٦ ـ النووي ١٦ / ٨ .

وعليه ، فالمكان المعروف الآن في مكة المكرمة بمكان المولد ، هو مكان ثبت بالتواتر ؛ وهو أول شعب علي ؛ وفي مكان المكتبة المعروفة الآن بمكتبة القطان ، التي بناها الشيخ عباس قطان في نفس مكان المولد المعروف ؛ وهو مكان الدار التي تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ؛ وقول الإمام السهيلي [ولد بالشعب وقيل بالدار التي عند الصفا] يؤكد هذا الكلام ؛ لأن الدار تقع عند بداية الشعب ، ومطلة على الصفا ، وهي أيضاً قرب منطقة سوق الليل التي تحدث عنها تقي الدين الفاسي عندما استغرب قول الإمام السهيلي فقال (مولد النبي ﷺ بسوق الليل ، وهو مشهور » فالدار في أسفل الشعب ، بل في أوله فيما بقي منه الآن ، أي ما بقي من أسفل الوادي ، وهي في منطقة سوق الليل ؛ وعلى مقربة من الصفا ، ولا يُستبعد أن بعضهم نسبها إلى شعب بني هاشم لأنها في أسفله ، وبعضهم نسبها إل الصفا لقربها منه ، وكلام تقي الدين الفاسي ينطبق على ذلك ، لأنها في منطقة سوق الليل ، أو على مقربة منها .

يؤيد هذا ما تلقته الأجيال ، جيلاً بعد جيل . .

فهنيئاً لمكة المكرمة هذا الشرف الذي تتيه به على سائر الأماكن ، أن وُلِدَ فيها سيد الخلق أجمعين ، صلوات الله وسلامه عليه .

وهنيئاً للمدينة المنورة أن هاجر إليها (ﷺ) . . وهنيئاً لها أيضاً أن تضم جسده الطري الطاهر الشريف . .

. . وهنيئاً لنا جميعاً ـ نحن المسلمين ـ في جميع أنحاء العالم بأن نحظى بشرف اتباعه (ﷺ) وأن نكون من أمته . . ونسأل الله أن نرد على الحوض في معيته إن شاء الله . . وأن نشرب من يديه الشريفتين وأن نحظى بشفاعته . . ونحشر في زمرته ﷺ .

بل شُقَّ صدره ﷺ

لا شك أن القاريء الكريم سيندهش لهذا العنوان . . ما علاقة شق صدره عليه الصلاة والسلام بمحبتنا له ؟ فضلاً عن أن حادثة شق الصدر في حد ذاتها تدخل في باب المعجزات التي أنكرها أناس غيورون على الإسلام كما يقول فضيلة الداعية الكبير الأستاذ محمد متولي الشعراوي[1] ، بحجة « أن الإسلام في كل قضاياه متمشٍ مع العقل »[2] ؛ ومعجزة كمعجزة شق الصدر لا تتمشى مع العقل . .

ويقول الأستاذ الشعراوي في الرد على هؤلاء « ولكن الأديان لا تناقش هذه المناقشة ؛ إنما يناقش الدين بالعقل في قمته الأساسية ، وهي قمة الإيمان بالله ، وحين تدخل على قضية الإيمان بعقلك ، فأنت حر في أن تؤمن أو لا تؤمن ؛ أما إذا دخلت على الإيمان بالله بعقلك وفرغت من هذه القضية ، وصولاً للإيمان ، فتقبَّل بعد ذلك عن الله كل ما يقول ، ويجب ـ عندها ـ أن ينحصر عمل عقلك في توثيق النقل عن الله ، هل قال الله ذلك أم لم يقل »[3] أي هل ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ أم لم يثبت ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ .

(١ ، ٢ ، ٣) انظر جريدة الرأي العام الكويتية الغراء بعددها ٨٢٨٣ بتاريخ ١٩ / ٢ / ٨٦ يجيب فضيلته على سؤال لمحرر الجريدة المذكورة .

ولا شك أن حادثة شق الصدر وردت فيها أحاديث كثيرة ، تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل ؛ مما لا يسوِّغ إنكارها بحال من الأحوال . . إنها معجزة ؛ ومعنى المعجزة أنها ما يعجز المخلوق عن الإتيان بمثله . قد يتذرعون بأن العادة التي جرى عليها نظام الكون لا تتفق والمعجزة ، وهذا صحيح ، ولكن المعجزة لو جرت على السنن الكوني ، فقدت عنصر الإعجاز ؛ الإعجاز إنما يكمن في أن المعجزة تأتي على ما لم تجر العادة بمثله ، ولذلك تسمى خارقة للعادة ، بفعل الله تعالى ، فهي معجزة للبشر على هذا الأساس ؛ ومن شك في ذلك فقد كفر والعياذ بالله .

إلا أن هناك فريقاً من المفكرين الإسلاميين المُحْدَثين أنكروا حادثة شق الصدر على أساس آخر ؛ نظروا إلى الموضوع من زاوية مختلفة فلم يُدْخلوا مسألة الإعجاز في حسابهم . إنهم يرون أن الكمال والتفوق إنما يكونان عن طريق مصارعة البشر لشهواتهم وحظوظهم ، فمن صرع هواه ، وغلب شهوته ، فهو أكمل ممن صرعه هواه ، وغلبته شهوته ؛ وعلى ذلك يستند من يفضلون الرسل على الملائكة ، فإنَّ الملائكة في مأمن من مغالبة الهوى ، ومصارعة الشهوات ، صِبْغَةَ الله التي فطرهم عليها وحادثة شق الصدر في نظر هؤلاء تُدخل سيدنا محمداً ﷺ في مصاف الملائكة ، لأنها - في فهمهم - تجرده من عنصر المغالبة والمصارعة التي بها يقاسُ الكمال البشري ، وعلى أساسها يمتاز الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على الملائكة .

وهو كلام صحيح لو أن شق الصدر كان الغرض منه ذلك ، إنما الغرض قد وضَّحتْه أكثر الأحاديث التي وردت في حادثة شق الصدر.

فعن أبيّ بن كعب أن أبا هريرة كان حريصاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال : يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً ، وقال : لقد سألت أبا هريرة : إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا برجل يقول لرجل : أهو هو؟ قال : نعم ، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أره على أحد قط ، فأقبلا إليَّ يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي ، لا أجد لأخذهما مساً ، فقال أحدهما لصاحبه : اضجعه ، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر . فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقها ؛ فيما أرى ، بلا دم ولا وجع ، فقال : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرحمة والرأفة ، فإذا مثل الذي أخرج شبيه الفضة ، ثم هز إبهام رجلي اليمنى ، فقال : اغد واسلم . فرجعت أغدو بها رقة على الصغير ورحمة على الكبير» الحديث[1] .

إذن فالغرض من شق الصدر إنما هو أنْ يملأ قلبه ﷺ رحمة ورأفة . . وكون القلب يملأ رأفة ورحمة ، لا يلزم منه ألاَّ يصارع المرء شهواته بل هذا أدعى إلى مصارعة الشهوات ، خذ مثلاً قوله عليه الصلاة والسلام : لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها - إن قلباً

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في (زوائد على المسند) (٥ : ١٣٩) وعزاه في شرح الشفاء : لابن حبان والحاكم والضياء في المختارة ، وصححوه -
وانظر الفتح الرباني (٢٠ : ١٩٥ - ١٩٧) ، وشرح الشفا لملا علي القاري (١ : ٤١٤) .
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ : ٢٢٢ - ٢٢٣) رجاله ثقات .

مملوءاً بالرحمة والرأفة ، يستحيل عليه أن يقيم مثل هذا الحد على فلذة كبده خاصة إذا كانت مكانتها من نفسه كمكانة السيدة فاطمة من نفس سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه .

فضلاً عن أن أكثر الأحاديث تشير إلى أن الملكين ملآ الصدر الشريف حكمة وإيماناً ، وهذا لا يتعارض مع الحديث السابق ، لأن الرأفة أو الرحمة تحتاج إلى حكمة بحيث لا توضع تلك الرأفة أو الرحمة في غير محلها ، ولذلك نجد أن مصارعته ﷺ لنفسه أعظم من مصارعة غيره لنفسه ، لأنه رحمة للعالمين ، وقد امتلأ قلبه رحمة ، وهو مع ذلك مضطر لأن يكون شديداً على الكفار يحاربهم بكل ما أُوتي من قوة . . انظر إلى موقفه هذا من موقف مسلم آخر ، لم يُملأ قلبه رأفة ورحمة . إنه لا يحس بالصراع النفسي الذي يحسه الرسول المملوء رأفة ورحمة ،

حين يحارب الكفار ؛ لأن درجة الرحمة عنده أقل بما لا يقاس عليه ، من درجة الرحمة التي في قلب الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، فالرسول يصارع هذه الرحمة ، وهي تنازعه فيما لو أن فاطمة سرقت ، وقطع يدها أو حين يضطر لقتال الأعداء وهم من جنس العالمين الذين أرسله الله رحمة لهم فضلاً عن أن درجة الرأفة والرحمة عنده تزن رأفة الناس ورحمتهم مجتمعين .

والأحاديث التي تُشير إلى أنَّ الصدر الشريف مُلِىءَ حكمةً وإيماناً بعد أن شقه الملكان أحاديث كثيرة منها :

« عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : فُرِجَ عن سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدري ، ثم غسله

بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً ، فأفرغه في صدري ثم أطبقه . . » الحديث متفق عليه[1] .

« وعن مالك بن صعصعة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان ـ وذكر يعني رجلاً بين الرجلين ـ فأُتيتُ بطست من ذهب ملآن حكمة وإيماناً ، فشق من النحر إلى مراق البطن ، ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء حكمة وإيماناً . . » الحديث . متفق عليه .

وفي لفظ لهما : (أي البخاري ومسلم) وأيضاً قال ﷺ : بينما أنا في الحطيم ـ أو قال في الحجر ـ مضطجعاً إذ أتاني آت ، فَقَدَّ ـ قال وسمعته يقول : فشقَّ ـ ما بين هذه إلى هذه . . الحديث .

وفي رواية ثالثة لهما أيضاً : فأتيت فانطلق بي ، فأتيت بطست من ذهب فيهـا من ماء زمزم ، فشرح صدري إلى كذا وكذا ، يعني إلى أسفل بطني .

وفي أخرى أيضـاً : فأتيت بطست من ذهب ممتلىء حكمـة وإيماناً ، فشق من النحر إلى مراق البطن ، فغسل بماء زمزم . .) الحديث[2] .

---

(١) رواه البخاري : كتاب الصلاة باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ، وفي كتاب باب ما جاء في زمزم . وفي كتاب الأنبياء باب ذكر إدريس عليه السلام .

ورواه مسلم : كتـاب الإيمان باب الإسراء برسـول الله ﷺ إلى السمـوات وفرض الصلوات ، رقم ٢٦٣ .

(٢) رواه البخاري : كتاب بدء الخلق ، ج ٣٤٦ ، باب ذكر الملائكة ، وفي كتاب مناقب الأنصار باب المعراج . ورواه مسلم : كتـاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات . . رقم ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، ورواه أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم .

وعَنْ أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم فشرح عن صدري ، ثم غسل بماء زمزم ، ثم أنزلت ـ اللّفظ لمسلم .

زاد البرقاني في روايته : ثم أنزلت على طست من ذهب مملوءة حكمة وإيماناً ، وفي لفظ البخاري فلم يكلموه حتى احتملوه ، فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل عليه السلام ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه ، وغسله بماء زمزم حتى أنقى جوفه ، ثم أتي بطست من ذهب . . » إلخ . الحديث ، متفق عليه[1] .

(وعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ، ففرج صدري ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً ، فأفرغها في صدري ، ثم أطبقه . .)[2] .

(وعن أبي هريرة رضي الله عنه في قول الله عز وجل : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (الإسراء : ١) قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ ومعه ميكائيل ، فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام : ائتني بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح له

---

(١) رواه البخاري : كتاب التوحيد ، (باب ما جاء في (كلم الله موسى تكليماً) وفي كتاب الأنبياء ، باب صفة النبي ﷺ ، ورواه مسلم كتاب الإيمان : باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات رقم ٢٦٠ ، ورواه أيضاً الترمذي والنسائي وأحمد وغيرهم .

(٢) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند (٥ : ١٢٢ ـ ١٤٣) ورجاله رجال الصحيح كما يقول الهيثمي في مجمع الزوائد (١ : ٦٥ ـ ٦٦) .

صدره : قال فشق عن بطنه فغسله ثلاث مرات . . » الحديث[1] .

(وعن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ؟ قال : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى بن مريم ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ لي في بهم لنا ، أتاني رجلان بثياب بياض ومعهما طست من ذهب مملوء ثلجاً فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فغسلاه ثم جعلا فيه حكمة وإيماناً[2] .

فأنت ترى أن شق صدره الشريف ﷺ إنما كان ، ليملأ رأفة ، ورحمة ، وليملأ حكمة وإيماناً ، ليصرّف الرأفة والرحمة بمقتضى الحكمة ، حتى وإن كانت على عكس هواه ورغبته ، وقد مثلنا لذلك من قبل بما فيه الكفاية ، فليست هناك أدنى علاقة بين شق الصدر الشريف وبين عنصر البشرية الذي يشترك فيه ﷺ مع سائر الناس ، وليس في ذلك إلا ما يجعل مهمته أصعب من غيره ، إذا أقام حداً على من يحب أو اضطر إلى قتال المشركين ، وهو المبعوث رحمة للعالمين ؛ وليس في الناس من يدانيه ﷺ رأفة ورحمة ، فإذا أقام أحد غيره الحد أو حارب المشركين مثلاً فإن ذلك يكون أقل صعوبة على نفسه وأقل حرجاً ممن مُلِيء صدره الشريف رأفة ورحمة، تضطره مواقف كثيرة أن

---

(١) رواه البزار وأبو يعلي ، وابن جرير الطبري ومحمد بن نصر المروزي وابن حاتم وابن مردويه وغيرهم .

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١ : ٣٨) من تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن بدران .

يعمل ضدها بمقتضى ما ملىء من حكمة كالقتال مثلاً ، أو كموضوع طلاق زيد من زوجه ، وأمْرِ الله تعالى له بأن يتزوجها ، رغم ضغط العرف السائد آنذاك ، كل هذه وأمثالها أوامر من الله تعالى غَالَبَ ﷺ نفسه الشريفة فيها فغلبها حين لا يقدر أحد ، وصارعها حين يعجز الناس .

وأما امتلاء صدره ﷺ بالإيمان ، فلأنه لا بد أن يكون قدوة للمؤمنين ولا بد أن يشيع إيمانه على الناس إذ يأتمون به ؛ لذلك زاده إيماناً لو وُزِّع على الناس لوسعهم ليكون القدوة الكاملة ، وهذا لا يتعارض مع البشرية ، ولا مصارعة النفوس ، فإن المؤمن يحمله الإيمان على الجهاد والقتال ولا يعني ذلك أن نفسه تهوى القتال والمحاربة ، وترتاح للطعن والضرب رغم ما يكون من قوة إيمان ، كيف لا والله تعالى يقول : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » .

وأما شق صدره الشريف ليلة الإسراء والمعراج ، فلأنه ﷺ سيقابل الله عز وجل ، ويدنو منه قاب قوسين أو أدنى ، ويخاطبه ويؤانسه ويناجيه ، فهذه (أولاً) مزية انفرد بها دون العالمين وهي (ثانياً) تحتاج إلى (قوة) خاصة لا توجد في الطبيعة البشرية ، ولا يحتاج إليها أحد في هذه الدنيا . . ولقاء الله تعالى ، بالصفة المذكورة في قصة الإسراء والمعراج لا بد لها مما يسهل مهمتها على من يتشرف بها كائناً من كان ، إلا أن الله لم يشرف بها ولم يختص أحداً من الناس غير حبيبه الأعظم ، وصفيه الأكرم كيف لا والله تعالى يقول : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[1] الله

(١) الأعراف ، الآية ١٤٣ .

تعالى لم يدعْ حبيبه محمداً ﷺ ليدكه دكاً ولا ليصعقه صعقاً ، إنما ليخصه بما اختصه به ﷺ . . دون غيره من الخلق أجمعين . .

ولذلك لما دعاه الله تعالى إلى تلك الرحلة المعراجية العلوية أهله بما يكون به على مستوى القرب من الله عز وجل . وهذا لا يتنافى مع خصائص البشرية . يقول الله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ على جهة المدح فقد كان في الإمكان أن يزيغ البصر وأن يطغى ، بحكم الطبيعة البشرية المشتركة بينه وبين سائر الإنس . لكنه غلب هذه الطبيعة ، حين لا يقدر أحد ، وصرعها حين لا يستطيع بشر .

إذن فالقول بأن شق صدره الشريف ﷺ إنما يعني إخراجه من بشريته التي يشترك فيها مع البشر قول لا يستند على أساس صحيح .

وعن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه فقالوا : إن محمداً قد قتل » الحديث رواه مسلم[1] .

وعن حليمة السعدية رضي الله عنها في حديثها عن أخذه ﷺ وإرضاعه الحديث بطوله وفيه : قالت : فبينما هو يلعب وأخوه يوماً خلف البيوت ، يرعيان بَهْماً لنا ، إذ جاءنا أخوه يشتد ، فقال لي ولأبيه :

(١) كتاب الإيمان : باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات رقم (٢٦١) ومسند الإمام أحمد (١٣ : ١٢١ ، ١٤٩ ، ٢٨٨) وفي آخر الحديث عندهما وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره .

ادركـا اخي القـرشي ، قد جاءه رجـلان فأضجعـاه ، فشقا بطنه ، فخرجنا نحوه نشتد ، فانتهينا إليه ، وهو قائم منتقع لونه ، فاعتنقه أبوه ، واعتنقته ، ثم قلنا : مالك أي بني ؟ قال : أتاني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعـاني ثم شقا بطني فوالله ما أدري ما صنعا ، قالت : فاحتملناه ، فرجعنا به . .) الحديث[1] .

إلى غير ذلـك من الأحـاديث ، ولـو توسعت في ذكـرهـا لطال البحث ، وأعتقد أن ما ذكر كاف في الدلالة لمن كان له قلب وعقل .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (٧ : ٢٤) في معـرض رده على من أنكر شق الصدر الشريف ليلة الإسراء : (ولا إنكار في ذلك فقد تواردت الروايات به) .

وقال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي في كتابه الفريد (حجة الله البالغة) : وظهرت الملائكة فشقت عن قلبه فملأته إيماناً وحكمة وذلك بين عالم المثال والشهادة فلذلك لم يكن الشق عن القلب إهلاكاً . . وقد بقي منه أثر المخيط وكذلك كل ما اختلط فيه عالم المثال والشهادة[2] .

قال ابن إسحٰق : وحدثني جهم بن أبي جهم ، مولى الحارث بن حاطب الجمحي بن عبد الله عن جعفر بن أبي طالب أو عمن حدثه عنه قال :

كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي

(١) رواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات (مجمع الزوائد ٨ : ٢٢٠ ـ ٢٢١) .

(٢) نقلاً عن السيرة النبوية للسيد أبي الحسن الندوي (دار الشروق) .

أرضعته تحدث . . قالت : فرجعنا به ، فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر[1] مع أخيه لفي بَهْم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه ، قالت : فخرجت أنا وأبوه وأخوه فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه قالت : فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يا بني ؟ قال : جاءني رجـلان عليهـما ثياب بيض فأضجعـاني وشقا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو . قالت : فرجعنا به إلى خبائنا .

وقال ابن إسحٰق : وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلايمي . . أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ، قال : « نعم أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسىٰ ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ، بينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بَهْماً لنا ، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوء ثلجاً ، ثم أخذاني فشقـا بطني واستخـرجـا قلبي فشقـاه فاستخرجا منه علقة سوداء ، فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه) .

ورواة الحديث هؤلاء ليس فيهم من يقدح فيه أو من عرف بالوضع أو الكذب أو النفاق مما قد يدعو إلى إنكار هذا الحديث ، فإذن القصة صحيحة واردة بنص صحيح في البخاري ومسلم ، والقاعدة المعروفة أنه (لا اجتهاد مع نص) . ولذلك فإني أعجب ممن ينكر مثل هذه الحادثة التي تواترت فيها الأحاديث الشريفة ، التي يشد بعضها إزر بعض . . والتي لا تترك مجالاً لتردد أو اشتباه .

(١) هذا بعد رجوعها الثاني به من مكة بعد أن بلغ الفطام .

والخلاصة أن كافة الدلائل القاطعة تشير أن صدره الشريف ﷺ شقه الملكان ، وأخرجا منه علقة هي حظ الشيطان ، وملآه رأفة ورحمة كما ملآه حكمة يضع بها الرأفة والرحمة في موضعيها ، كما ملآه إيماناً ليكون القدوة الكاملة لكافة المؤمنين

وليس في هذا كما ذكرنا ما يتعارض مع بشريته ، إنما هو ممَّا يتفرع عن قوله تعالى ، على طريق الامتنان به علينا ﷺ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وبهذا وجبت علينا محبته ﷺ ، لأنه الرؤوف الرحيم بنا ، ولأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم . عزيز عليه عنتهم وظلمهم . فإذا لم نحب مَنْ هذا بعض حاله معنا ، . فمن نحب ؟

وهل يكون حميداً أن يُجادَ لنا وأننا بقضاء الحق بخال

وما دام الشيء بالشيء يُذكر ، كما يقولون ، فلنتبرك بذكر بعض معجزاته الأخرى صلوات الله وسلامه عليه ، نَسْتَشِفّ من طياتها النزر اليسير مما أكرمه الله تعالى به ، وتفضّل به علينا مما يوجب محبتنا له ، وطاعتنا إياه ، ﷺ ، فمحبته ﷺ من محبة الله وطاعته من طاعة الله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ .

اللهم صل وسلم وبارك عليه .

معجـزات أخرى :

هناك الكثير من المعجزات التي لو أردنا استعراضها لوجدنا أنها

تتنافى مع بشرية الرسول ﷺ فلا تكون إلا من الله عز وجل . فمن معجزاته أنه سقى الجيش من قدح صغير وضع فيه يده فنبع الماء من بين أصابعه حتى رووا كلهم ، أليست هذه حادثة صحيحة وواردة . وكذلك معجزة إطعام النفر الكثير من صاع . وقيل إنهم نحو الثلاثمائة وقيل إنهم ثلاثون ومائة كما في البخاري ، فهل هذا أيضاً يمكن أن ينكر لمجرد أنه يتنافى مع بشريته ﷺ .

ومن معجزاته الأخرىٰ انشقاق القمر يوم طلبت قريش منه معجزة تدل على صدق نبوته ، فشق الله تعالى القمر نصفين فرأوه رأي عين ، ثم لم يكن منهم إلا أن قالوا : سحرنا محمد فأنزل الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (القمر ١-٢) وسياق هذه الآية صريح بأنها في الدنيا والأحاديث في ذلك صحيحة ، وقد رواها الشيخان . وللمستزيد أن ينظر في دلائل النبوة . وعن أنس رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر (متفق عليه واللفظ للبخاري) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين ، فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله ﷺ اشهدوا) (متفق عليه واللفظ لمسلم .

وروى ابن عباس رضي الله عنهما : (أن القمر انشق على زمان رسول الله ﷺ) متفق عليه .

وحديث الجذع أيضاً عندما كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع

نخلة فلما تمَّ بناء المنبر له عليه الصلاة والسلام خطب عليه فحنَّ الجذع حنيناً سمعه كل من حضر .

ثم ماذا نقول في موضوع رؤية الرسول ﷺ من وراء ظهره كما يرى من أمامه تماماً . . ألا يتنافى هذا مع بشريته إذا أردنا أن نحكِّم مجرَّد الرأي وهذا أمر ثابت . فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : هل ترون قبلتي ها هنا ، فوالله ما يخفى عليَّ خشوعكم ولا ركوعكم ، إني لأراكم من وراء ظهري (متفق عليه واللفظ لمسلم) .

وفي رواية أخرى عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً ثم انصرف فقال : « يا فلان : ألا تحسن صلاتك ألا ينظر المصلي إذا صلَّى كيف يصلِّي فإنما يصلِّي لنفسه ، إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صلى بنا النبي ﷺ ثم رقى المنبر فقال في الصلاة وفي الركوع : (إني لأراكم من ورائي كما أراكم) متفق عليه واللفظ للبخاري .

وفي رواية أخرى للنسائي : فوالذي نفسي بيده إني لأراكم من خلفي كما أراكم من بين يديَّ .

قال النووي رحمه الله تعالى في شرحه لصحيح مسلم : قال العلماء معناه : « إن الله تعالى خلق له ﷺ إدراكاً في قفاه يبصر به من ورائه . وقد انخرقت العادة له ﷺ بأكثر من هذا وليس يمنع هذا من عقل ولا شرع بل ورد الشرع بظاهره فوجب القول به » وقال القاضي

عياض : قال أحمد بن حنبل رحمه الله وجمهور العلماء : هذه الرؤية رؤية بالعين حقيقة[1] .

ثم الإسراء والمعراج الذي لم يعط لغيره من الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم ، وأكرمه الله سبحانه وتعالى بإمامة الأنبياء في بيت المقدس ، وما أراه من آيات ربه الكبرى في المعراج وتكليم الله عز وجل له ، والسرعة التي سار بها ، والطريقة التي عرج به فيها والتي أسري به فيها كلها لا تتفق مع بشريته ﷺ .

إذن فنحن لا نستطيع أن نضع هذا المعيار في كل حادثة نريد أن نثبت بها بشرية الرسول ﷺ لأننا نتفق جميعاً على أنه بشر ، وأن الله سبحانه وتعالى أرسله لنا بشراً رسولاً ولا خلاف في ذلك . ولكن هذا في رأينا لا يستوجب إنكار المعجزات التي تميَّز بها أو الخصائص التي أكرمه الله سبحانه وتعالى بها ، والتي قد تعتبر من الخوارق إذا قيست بقدرات البشر أو بعادات البشر . وقد كانت معجزاته ﷺ متميزة حتى عن الأنبياء السابقين (كانت معجزات الأنبياء السابقين وقتية حسِّية يدركها من شاهدها ببصره ، فإذا انقضت زالت . وقد أعطي ﷺ مثل هذه المعجزات والخوارق الكثير ، ولو أننا ذهبنا نستقصي سائر معجزاته لاستغرق الحديث مجلدات كما يقول ابن سيد الناس في عيون الأثر ، وكل معجزاته ثابتة مروية بالأحاديث الصحاح ، وقد بلغ بعضها حد التواتر[2] .

---

(١) من كتاب « عظيم قدره ورفعة مكانته ﷺ عند ربه عز وجل » . للدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر .

(٢) انظر كتاب عظيم قدره ورفعة مكانته ﷺ عند ربه للدكتور خليل ملا خاطر .

وفي حديث لأبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت عن الأنبياء بست ونصرت بالرعب » .

وعن جابر رضي الله عنه .. قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد » وزاد البخاري : « من الأنبياء قبلي ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر » والحديث متفق عليه .

وقد ذكر أبو الحسن الندوي في كتابه السيرة النبوية : « وهكذا فعلتْ حليمة فانصرفت عنه أول مرة ثم انعطف قلبها عليه وألهمها الله حبه .. وأخذته .. وذهبت به إلى رحلها ولمست البركة بيدها . فكان لكل شيء في رحلها شأن غيرا لشأن .. ورأت البركة في اللبان والألبان والشارف والأتان .. وكل يقول لقد أخذت يا حليمة نسمة مباركة وحسدتها صواحبها .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن الله قدر له النبوة قبل أن يخلق آدم ، وإن كان آخرهم بعثاً ؛ وإنما تأخّر بعثه ﷺ ، لأن البشرية جرْياً على السُّنَّة الإلهية ، لم تكن مؤهلة لاستيعاب رسالته الشاملة العامة الخاتمة لما قبلها من الرسالات ، فأخر الله تعالى بعثته إلى المرتبة التي تمكّن البشرية من أن تتفهم هذه الرسالة الكبرى ، التي لم تكن لتتفهمها ما لم تبلغ هذه الدرجة من التطور والنضوج ..

في الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ كُتب نبياً وآدم منجدل في طينته
فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إني عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته » وهذا الحديث رواه أحمد والحاكم وابن حبان وصححاه وغيرهم .

وعن ميسرة الفجر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ وفي لفظ متى كتبت ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » (رواه أحمد والحاكم وصححه وغيرهما) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قالوا : يا رسول الله متى كتبت نبياً؟ قال: « وآدم بين الروح والجسد » (رواه أحمد والحاكم وصححه) ، وهناك روايات وأحاديث أخرى من غير طريق هؤلاء أيضاً[1] .

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، وأنه قدر نبينا ﷺ أن يكون نبياً ، وأن يكون خاتماً للنبيين ، وسيداً لولد آدم وآدم بين الروح والجسد .

* **والحديث : خلق الله القلم فقال له اكتب :**

وهذا أمر عام .. ولكن هذه الأحاديث فيها خصوصية عن الرسول وتوضيح بأنه كتبت له النبوة وآدم عليه السلام منجدل في

(١) انظر كتاب عظيم قدره ورفعة مكانته ﷺ عند ربه للدكتور خليل ملا خاطر .

طينته . ثم هناك الآية التالية في سورة آل عمران : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران : ٨١)

ولا يخفى على أي باحث ما ورد من آيات في القرآن الكريم دالَّة على صدق نبوته وثبوتها في التوراة والإنجيل .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

ومن ناحية أخرى أورد صاحب الإصابة في ذكر الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة على القرآن الكريم هذه النصوص :

أخرج أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت : أخبرني عن صفات رسول الله ﷺ في التوراة فقال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : « يا أيها النبي إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله

حتى يقيموا الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غُلفاً » .

وأخرج البخاري نحوه عن عبد الله والبيهقي عن ابن سلاَّم ، وفي رواية : «حتى يقيم الملة العوجاء» وأخرجه ابن إسحٰق عن كعب الأحبار بمعناه ، وأخرجه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها مختصرا ، وذكر وهب بن منبه أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى داود في الزبور : « يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد صادقاً سيداً لا أغضب عليه أبداً ولا يُغضبني أبداً ، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تَقدَّم من ذنبه وما تأخر ، وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء وفرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل ، حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم نور الأنبياء - إلى أن قال - يا داود ! إني فضلت محمداً وأمته على الأمم كلها » كذا في البداية .

وأخرج أبو نعيم في الحلية (ج ٥ ، ص ٣٨٦) عن سعيد بن أبي هلال أن عبد الله بن عمرو قال لكعب : أخبرني عن صفة محمد ﷺ وأمته ، قال : أجدهم في كتاب الله تعالى : « إن أحمد وأمته حمادون يحمدون الله عز وجل على كل خير وشر ، يكبرون الله على كل شرف ، ويسبحون الله في كل منزل ، نداؤهم في جو السماء ، لهم دويّ في صلاتهم كدوي النحل على الصخر ، يصفّون في الصلاة كصفوف الملائكة ، ويصفّون في القتال كصفوفهم في الصلاة . إذا غزوا في سبيل الله كانت الملائكة بين أيديهم ومن خلفهم برماح شداد . إذا حضروا الصفّ في سبيل الله كان الله عليهم مظلاً - وأشار بيده - كما تظلّ النسور على وكورها ، لا يتأخرون زحفاً أبداً » .

وأخرجه أيضاً بإسناد آخر عن كعب بنحوه وفيه : « وأمته الحمادون يحمدون الله على كل حال ويكبرونه على كل شرف ، رعاة الشمس يصلون الصلوات الخمس لوقتهن ولو على كناسة ، يأتزرون على أوساطهم ويوضئون أطرافهم » وأخرج أيضاً بإسناد آخر عن كعب مطولاً .

وخلاصة القول أنه ﷺ قد كتبت له النبوة في علم الله عز وجل قبل آدم عليه السلام .

وأن الإسلام يتمشى مع العقل ، ما في ذلك شك .

هنالك عالمان ، عالم الغيب ، وعالم الشهادة ، فالعقل مجاله عالم الشهادة ، العالم المحسوس الملموس ، فليس في الإسلام ما يتناقض مع ما أثبته العلماء ، أو قالت به البداهة ، في عالم الحس وعالم الشهادة ، عالم الملك . .

أمّا عالم الملكوت (عالم الغيب) ، فهو غيب عن العقل ؛ الكلمة فيه لله وحده على لسان رسله الصادقين ، أو في كتبه المطهرة . .

وكل تدخلٍ من العقل في عالم الغيب مجرد ظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً . . ولذلك مدح الله الذين يؤمنون بالغيب ، وعدّهم بأنهم هم المتقون ، دون سواهم ، كما جاء في أوائل سورة البقرة ، لأنهم عرفوا رتبة العقل ، فأوقفوه عندها ، وتلك هي الحكمة : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ كما عرفوا قدر أنفسهم فقالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

وبعد

فقد كانت هذه قبساتٍ[1] من مشكاة السيرة المحمدية المشرقة ، وومضاتٍ من أنوار الهداية المتألقة ، وقطوفاً من رياض المصطفى ﷺ ، ولمحاتٍ من تلك السيرة العطرة ، أردت أن أضعها بين يدي أبنائنا ، لتكون نبراساً يضيء أمامهم الطريق ، ويجسّد لهم القدوة الحسنة التي لا تدانيها قدوة ، والمثل الأعلى ، لأنه ﷺ هو المثل الأعلى للإنسانية جمعاء ، فضلاً عن هذه الأمة المرحومة ؛ وهو الهادي بإذن ربه إلى سواء السبيل . يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى : ٥٢) .

وكلما علمنا أولادنا محبته ﷺ ، والتمسك بأهداب شريعته والتأسّي بأدبه الرباني الذي أدبه به ربه فأحسن تأديبه [أدبني ربي فأحسن تأديبي] . . نعم كلما فعلنا ذلك ، اقتربنا أكثر فأكثر نحْوَ منابع الإسلام الصافية ، وروافده العذبة ، وشريعته السمحاء . لأن القضية تبدأ بالمحبة ، وتقوى بالمحبة ، وتستمر ، وتنمو أيضاً بالمحبة ، حتى تصل ذروتها ، فتكون كمال الإيمان ؛ يقول ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . . وصدق المحبة

---

(١) قبساتٍ : خبر كان منصوب وعلامة نصبه الكسرة لأنه جمع مؤنث سالم ، وكذلك : ومضاتٍ ، لمحاتٍ .

إنما يتجلى في تطبيق هذه الشريعة . التي تمثلت في شخص هذا الرسول الكريم وسيرته العطرة التي كانت ترجمة عملية لهذا الدستور الرباني الخالد الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على قلبه ليبينه للناس فتمثله خلقاً بلغ به قمة الكمال الإنساني .

فكان جديراً بأن يخاطبه ربه الذي أدبه فأحسن تأديبه بهذا الثناء الذي تردد صداه في الملأ الأعلى وفي جنبات الوجود شاهداً على عظمة هذا الخلق الرباني . ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ أجل خلق عظيم في ميزان الحق سبحانه ، عظمة لا تدرك كنهها كلُّ تصورات الخلق ، ولا عجب فقد كان ﷺ ـ خلقه القرآن ـ كما وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها .

وإذا كانت مداركنا عاجزة عن الإحاطة بأسرار هذه العظمة فما أحرانا أن نتمثل مواقفه ﷺ لنسير على هداها ونربي أبناءنا عليها ليتحقق فينا قول الله عز وجل : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

فما من موقف وقفه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مع من يحب ، أو مع من يكره ، مع نفسه ، أو مع أهله ، مع القريب أو البعيد ، في الحرب أو السلم ، في الشدة أو الرخاء ، في السر أو العلانية ، إلا كان « القرآن » مطبّقاً ، جاء ليعلم الإنسانية كيف تصوغ حياتها وفق منهج الله لتكون جديرة بتكريم الله .

وهذا الكتاب إنما هو وقفات عابرة على بعض هذه المواقف ،لعلنا نغرسها في نفوس أبنائنا غرساً ، ونُعمّقها في قلوبهم حُبّاً ، ونضعها

أمام أعينهم مُثُلاً . . مُثُلاً يتضاءل عندها الغرب والشرق والتاريخ بأسره ؛ وتتصاغرُ أمامها كافة المباديء ؛ وتصبح كافة الزعامات دونها أقزاماً ، فلا ينبهر أبناؤنا إلا « بالخلق العظيم » ، « والبيِّنة الفريدة والمثَل الكامل ، والرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه .

ولنأخذ من هذا « الخلق العظيم موقفاً أو موقفين » . .

قولوا لأبنائنا ، لقد درستم الحروب والانتصارات ، وعشتم الانقلابات وما يعقب الانقلابات ، وعرفتم « الثورات » وما تتمخض عنه الثورات ، فهل رأيتم موقفاً واحداً من كل تلك المواقف ، يقارب الموقف الذي وقفه سيد الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه ؟ لقد عَذَّبه أهل مكة ، وآذوه ثم رجع إليهم فاتحاً ، منتصراً . . هل أبطره النصر الكاسح المبين ؟ هل استبدت به القدرة والغلبة ، ولو للمعاملة بالمثل ؟ والبادىء أظلم ! ماذا فعل بأولئك الذين نكّلوا به وبأتباعه ، وفعلوا به وبهم الأفاعيل ؟ اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذا هو « الموقف » الأعظم الذي تُطَاطىء الدنيا رأسها له ، خاضعة في إكبار وإجلال ، وانبهار . . حقاً . . « إنك لعلى خلق عظيم » .

وجاءه جبريل بملك الجبال وهو ﷺ يعاني من قريش ما يعاني ، ووقف ملك الجبال ينتظر من سيد الخلق مجرد إشارة ليطبق على قريش الأخشبينْ ، انتقاماً لما فعلوا به وبأصحابه صلوات الله وسلامه عليه !!

فماذا فعل الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لو أنَّ أيَّ شخص مهما كان من الخلق . عانى مما عانى منه ﷺ ، لما تردد لحظة في أن يشير

على ملك الجبال بما عرضه سيدنا جبريل عليه السلام على سيد الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه ! هل فكر النبي في الانتقام ، هل فرح بساعة الخلاص من هؤلاء الذين آذوه في نفسه ، وفي أهله ، وفي أتباعه ، ووقفوا حجر عثرة أمام دعوته التي ستخرج الناس من الظلمات إلى النور . . كلا ثم كلا !

فهو صاحب الخلق العظيم وجاء رده يحكي للبشرية عظمة هذا الخُلُق :

« بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً »

صلى الله وسلم وبارك عليك يا سيدي يا رسول الله .

صلى الله وسلم وبارك عليك أيها الرحمة المهداة لجميع العالمين .

بذلك كنت سيد ولد آدم ، وبذلك كنت صاحب اللواء المحمود والحوض المورود ، والشفاعة الكبرى ، يوم الدين .

أيها الآباء ، أيها المربُّون .

علموا أبناءكم هذه السيرة ؛ علموهم هذه المواقف ؛ علموهم هذا « الخلق العظيم » .

علموهم كيف كان سيدنا محمد ﷺ أباً ، لا أب مثله في الآباء ، علموهم كيف كان قائداً ، لا قائد مثله في القواد ، علموهم كيف كان حاكماً لا حاكم يدانيه في الحكام ، علموهم كيف كان مربياً ، لا مربيّ مثله في المربين ، ولا رسول مثله في المرسلين .

علموهم كل هذه الجوانب الفذة التي تطفح بها السيرة

المحمدية ، وتتباهى بها صفحات التاريخ ـ تاريخ الإنسانية جمعاء ، منذ أن خلق الله الكون ، إلى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات . . هذه الجوانب الأخلاقية الفذة التي جاءت لتتمم مكارم الأخلاق !

علموهم كيف كان سيدنا محمد « إنساناً » بمعنى الخليفة الكامل الذي عناه الله تعالى عندما أراد أن يجعل من آدم وذريته في الأرض خلفاء .

لقد وقع الكثير من أبنائنا في حبائل الغرب الذي بهرهم بزخارفه وبهارجه ، وتوزَّعَتْ قلوبَهم زعاماتُه ، وتقاسمت وجدانهم مذاهبُه وأفكاره وفلسفاته ، لا لشيء ، إلا لأننا ـ معشر الآباء والمربين ـ لم نعمق في نفوسهم جلال السيرة المحمدية ، ولم نركز أنظارهم على ما فيها من مُثُل ، ومبادىء ، لم تُشَنِّف آذان التاريخ ، ولم تُعطِّر آفاق الكون وجوانب العالم ، بما يدانيها جمالاً ، وكمالاً وجلالاً ، وروعة ، وشمولاً ، واتساقاً .

إن شبابنا لأحوج ما يكون إلى الكنز الذي بأيدينا دفنّاه ، فلم يعرفوا ثروته ، والفردوس الذي أضعناه فلم يدركوا قيمته ، والبدر التمام الذي أصبحنا نحن الحجاب الساتر لنوره ، والسحاب المتراكم المانع لسناه الوضاء أن يشيع فيقبل شبابنا الضائع عليه ، ويتوجهوا بكليتهم إليه .

والمرء عدو ما جهل !

فلنعلِّم أبناءنا محبته ﷺ ومحبة آل بيته الطاهرين المطهرين، ومحبة

صحابته الكرام المهتدين .

ولنعلمهم أن المحبة تبدأ بالاتباع ، وتنأى عن الابتداع .

وأن صدق هذه المحبة ليس دعوى باللسان ولا هياماً يخالط الوجدان إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله ﷺ والسير على هداه وتحقيق منهجه في واقع الحياة .

يقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

اللهم علمنا حسن محبته ، ومحبة آل بيته وصحابته الأكرمين ، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين . . وثبتنا على المحبة الصادقة حتى نلقاه وهو راض عنا ، ونشرب من الحوض بيديه الشريفتين ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين .

وصلى الله على أشرف المرسلين ، سيد الأولين والآخرين ، سيدنا محمد بن عبد الله ، النبي الأمي ، الهادي إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مراجع كتاب

علموا أولادكم محبة رسول الله ﷺ

* القرآن الكريم .
* أبو هريرة في ضوء مروياته : رسالة ماجستير .
* الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ابن عبد البر .
* الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر .
* الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني .
* تراجم سيدات بيت النبوة : عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) .
* تفسير الطبري .
* تفسير ابن كثير .
* الجامع الصحيح : الإمام البخاري .
* الجامع الصحيح : الإمام مسلم .
* جوامع السيرة النبوية : ابن حزم الأندلسي .
* الحاوي للفتاوي .
* حجة الله البالغة : ولي الله الدهلوي .
* حجة الوداع وجزء عمرات النبي : العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي .

* الحلية : أبو نعيم .
* حول الاحتفال بالمولد النبوي : د . محمد علوي المالكي .
* حياة الصحابة : محمد يوسف الكاندهلوي .
* حياة محمد : محمد حسين هيكل .
* خاتم النبيين : محمد أبو زهرة .
* دراسات تاريخية .
* ذو النورين عثمان : العقاد .
* رسالة في تاريخ العرب : كوسان ديرسفال .
* الرسالة المحمدية : أبو الحسن الندوي .
* الرسول القائد : محمود شيت خطاب .
* الروض الأنف : الإمام السهيلي .
* رياض الصالحين : الإمام النووي .
* سبل الهدى والرشاد : الإمام محمد يوسف الصالحي .
* سنن الترمذي .
* سنن أبي داود .
* سنن ابن ماجه .
* السيرة النبوية : ابن هشام .
* السيرة النبوية : أبو الحسن الندوي .
* السيرة الحلبية : علي بن برهان الدين الحلبي .
* شرح الكرماني على صحيح البخاري .
* الشفاء : القاضي عياض .
* طبقات ابن سعد .

* عظيم قدره ومكانته ﷺ عند ربه عز وجل : د : خليل إبراهيم ملا خاطر .
* عيون الأثر في سيرة سيد البشر : محمد بن محمد بن سيد الناس .
* الكامل : ابن الأثير .
* المحبَّر : ابن حبيب .
* المستدرك : الحاكم .
* مسند الإمام أحمد .
* المواهب اللدنية : الزرقاني .
* النهاية : ابن الأثير .
* نهج البردة : أحمد شوقي .

الفهرس